سلسلة فسيفساء

ياسمينة خضرا

مَكْر الكلمات

رواية



منشورات

ياسمينة خضرا

مَكْر الكلمات

رواية

ترجمة: حنان عاد



الفارابي ـ سيديا

مَكْر الكلمات

YASMINA KHADRA

L'IMPOSTURE DES MOTS

JULLIARD

الكتاب: مَكْر الكلمات

المؤلف: ياسمينة خضرا

الترجمة: حنان عاد

الناشران

* دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)

ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107

e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

* سيديا (SEDIA) فرع مجمع هاشت الفرنسي في الجزائر

ت: 21 00 48 21 (213) ـ 82 14 60 21 (213)

فاكس: 84 14 60 21 (213)

www.sedia-dz.com

الطبعة الأولى 2011

ISBN: 978-9953-71-651-0

I

المقاربة

لو كانت الوردة تعلم أنّ لطافتها وجمالها سيسوقانها إلى إناء، لكان الأوْلى والأجدر بها أن تقطع عنقها بأشواكها الذاتية. لكنها، في الواقع، وتجهل أيضاً، أنها من ذلك الجيب من الظلال تنهل نسغ بقائها. من هنا، وفي هذا السياق، أيضاً، يأتي عذري، أنا.

1

قرنٌ ينتهي، ينعطف قذراً، مكتظّاً بمآسٍ وبخَنَث باليمين. يهرب جارّاً قدميه، رأسه غارق بين منكبيه، مدركاً هلاكه الأبدي، مما يضيف على تفليسته خزياً بائساً.

نحن في مطار بينيتو ـ خواريز: أولادي يلهون، طفلي مصاب بملل، وزوجتي قلقة.

باريس على بعد عشر ساعات من الطيران المتواصل، وها نحن على وشك التحليق فوق الجانب الشرقي من الولايات المتحدة.

فهل سيشكّل لنا هذا وسيلة للطيران بأجنحتنا الذاتية؟ إنْ نعم، كيف؟ مثل إيكار أم مثل الفراشات؟ ملبّياً نداء "خريف الأوهام"، كنتُ أجهل ممّ ستُصنَع فصولي الصيفية، من شمسٍ في عطلة النقاهة أو من قيظٍ محموم، من واجهة الأنوار أو من محرقاتٍ يتعذّر إخمادها... أوان الحقيقة يهيّىء أحكامه، ويجهّز أوان

الأكذوبة شِباكه. وأنا أعي براهين الأولى ومماحكات الثانية كنت أحتفظ ببرودتي. فإنْ كانت الأصالة تستند إلى المحسوس، فانّ الزيف سيعرف تماماً كيف يستعير منها لمسةَ مشابهةِ الحقّ التي تجيَّر لمصلحة الشكّ فتحيله أكثر صدقيّة من الأمر الواقع.

أليس الوعد أكثر إثارةً من الالتزام، أليست الشائعة أكثر دويّاً من الاقرار، والاعتراف أقلّ تحريضاً من الريبة؟ ما عصا موسى مقارنةً بعصا ديفد كوبرفيلد السحرية؟ ألا يضع بهلوان يسير على حدّ موسى، انتصاراته خلف تجلّيات مسيحٍ يمشي على الماء؟ فمنذ أن كان العالم عالماً، تواصل كلمة الخير كسر أسنانها عند كلام الغورو؛ الخير لم يغلب الشرّ قطّ، هو الشرّ يخلص دوماً إلى الغلبة، مثقلاً بافراطاته. ألهذا ينبغي الارتياب في شكل ممنهج بشيءٍ ما خلف كلّ معجزة؟ الورود لن تنبت من جديد أبداً، والعدول هو أكثر ما يُسامَح عليه بين حالات الاخلال بالواجب. وحين نحمل الأسلحة، فاننا لا نلقيها. مسألة شرف؟... ببساطة، مسألة حياة أو موت.

إنها الثانية إلاّ الربع. الاقلاع مرتقب بعد ساعة، لذلك، لدينا الوقت الكافي للتمتع بفنجان قهوة قبل الاقلاع.

دعتنا النادلة إلى طاولة، دوّنت طلباتنا ثم توارت. طويلاً.

فيليب أولّلي لابرون، ممثل البرلمان الدولي للكُتّاب، جالس إلى يميني. ابتسم. أيدرك قلقي؟ أشكّ في هذا: لديه هموم مغايرة. من جهتي، ينتابني بعض حزن بسبب إفسادي لاحتفالاته في نهاية العام، مجبراً إياه على قطعها ليس إلاّ لمرافقتي. كان ذهب مع عائلته الصغيرة إلى أصدقاء في قرية صغيرة تبعد مئة كيلومتر عن كويوكان حيث يقطن لأنه يودّ استعادة نشاطه في ذاك المكان إثر مضايقات من مثقفين محلّيين استقبحوا أن توكَل كازا ريفوجيو (Casa Refugio) إلى غرينغو (شخص من أميركا اللاتينية) على الرغم من أنه أيضاً ليس روائياً، في حين أنّ الكتّاب المحليّين يلحّون على تعهّدها. مؤدّياً دوره جيداً أميناً للصندوق، تمسّك فيليب بمهمّاته بجميع وسائل دفاعه لتشغيل شعراء متهرّبين. لكن ليس عناده ما يدفعه إلى الابتسام، ولا غدر حلفائه الطبيعيين، بل لأنه ينتظر مولوداً ؛ وينتظر، بحكمة، أن أذهب كي يعود إلى رفقة مارتا التي يرهقها الحمل.

لقد بذل جهده لجعل إقامتي المكسيكية أقل معاناة، نظراً لأنه علم أنّ إقامتي في فرنسا ستتبدّد على مشاكل

إدارية، فعرض عليّ فوراً أن يستقبلني، ولم يرَ سكريتير الـ PIE كريستيان سلمون في الأمر سوءاً. فمن ناحية، يؤمّن نفوذ فيليب له هامشاً للتحرّك؛ ومن أخرى يظنّ أنّ منفى موقتاً نائياً قد يمنحني مسافة كافية للقيام بجردة لحياتي الغريبة ومراجعة قَدَر غير معقول، لكنّ مكسيكو بعيدة جدّاً عن هذه الجزائر الطيّبة العتيقة المقدّسة التي يتسبّب الابتعاد عنها بالدوار. إنني أفتقد أهلي، وأيضاً عاداتي الصغيرة.

ومع ذلك، فأنا سعيد بالذهاب...

ـ أين؟

كنت أقفز، أنظر حول الطاولة: فيليب منغمس في تعليقاته، طفلي مأخوذ في حركات أصابعه البهلوانية؛ أولادي مسترخون بعدما شربوا عصير التفاح؛ أن زوجتي فأخذت تتساءل اذا ما كانت نسيت شيئاً في المنزل...

ـ أين؟ صرخ الصوت من جديد.

أعود: إنّ نبل زان من غشمات بات لا يتعدّى نبل كلب أصيل يقف خلفي، فخوراً بوجه به قبح الجرذ، وبنظرة سوءٍ وتكشيرةٍ مقلقة.

زان أحد أهمّ المناهضين لروايتي حملان السيّد. ولأنّه قزم، مبروم، ويتيم، تعرّض للمضايقات والسخرية

إلى أن سيطر التطرّف الاسلامي على بلدته ثمّ اقتاده إلى حيث عذابات القتل الجماعي والعبثيّات، فانتقم للبؤس الذي كان تسبّب له به أهل "غشمات" بمكرٍ عصي على التصديق، أما الرسائل التي لا تنفكّ تصلني من قرّائي، بعد أربعة أعوام على صدور الكتاب لدى جوليار، فإنها لا تتحدّث سوى عنه وحده. ونظراً لأن الجميع واثقون من أنّه سيلازمهم طويلاً، لذلك، فإنهم يتضرّعون إلى السماء ألّا يصادفوه في طريقهم.

انحنى عليّ، اضطهدني قائلاً:

ـ أين يمكن للكاتب أن يذهب؟ أيذهب فعلاً إلى مكانٍ ما حين يهرب من بلده؟

ـ لا يهرب أحدٌ من بلده. لا يهرب المرء إلّا من نفسه، من حقيقته أو من نكبته، كأنّ الروح يضيق بها جلدها فتحاول الخروج منه.

ركلتني زوجتي من تحت الطاولة.

ـ توقّف عن مناجاة نفسك، تذمّرت قائلة بصوت خافت، لكنه حازم كفاية لايقاظ فيليب.

تنبّه هذا الأخير إلى أنّه يوشك أن يغفو، فجلس ملقياً نظرةً على ساعته.

قال مداراةً لحساسيتها:

ـ النادلة تتأخّر.

ـ إنها تنسانا.

بحث عنها، فوجدها في آخر الغرفة، فبادرها بإيماءات لافتة، فأشارت إليه وهي ترتدي مريولها الأزرق بأن يصبر، واستدارت نحو زبائن آخرين.

2

أقلعت البووينغ وهي تحمل على متنها، قلّةً من الركاب، مما سمح لنا بالجلوس حيثما نشاء...

وحدهم المقتَلَعون من جذورهم يسافرون يوم رأس السنة؛ فبين المقاعد كانت غزلان ومحمد يدوران كفراشات، أما حسنيّة فكانت في حضن أمّها، تبحث عنّي من فوق المسند، فأبادرها بحركة من وجهي؛ إنها تغمرني بالسعادة. لقد أبصرت النور يوم بلوغي الخامسة والأربعين؛ وفسّرت مجيئها غير المنتظر على أنه إشارة: لقد تزامن مولدها مع الوقت الذي تخليت فيه عن مسيرتي العسكرية وانصرفت جسداً وروحاً إلى الدعوة الوحيدة التي طالما عنت لي، وهي الأدب.

منحتني المضيفة ابتسامة حلوة، دغدغت شعر طفلتي واتجهت نحو راكب منكبّ على مطالعة جرائده ويبدو عليه مظهر البيتنيكس. إنه ألماني يقبّل رفيقته على مرأى من ابنتي التي سارعت بمزيج من الذهول واللهو

إلى حجب عينيها بيديها الاثنتين، أما محمّد فقد تصرّف كبكر وقور غير معير أيّ اهتمام للعاشقين المراهقين. ارتحت لاستنتاجي أنّ السفر لم يصبْه بالاضطراب. وفي العاشرة من عمره، كانت آية قرآنية تثيره على غرار النشيد الوطني. وكان كلّما لمح رمز بلده في مكان ما، بدا كأنه أمام مشهد مقدّس. لكن، ماذا عرف عن بلده؟ في سن الثالثة، وجد في خضمّ تبادل لإطلاق النار بين قوى الأمن والمتطرّفين الفارين من سجن مرس الكبير العسكري. وفي الرابعة، وأثناء قيام أمه بنشر الغسيل على الشرفة، شهد نحر جندي شاب أمام بنايتنا على أيدي متطرفين كانوا قد اختطفوه. لذلك، فقد تعلّم منذ صغره، الامتناع عن القفز في الحقول حيث تعبث ذئاب بشرية مجنونة، وكذلك في الغابات حيث ينتظره خطر الموت بانفجار قنبلة يدوية؛ وفهم أنه نظراً لكونه ابن جنديّ فهو معرّض تلقائياً للشقاء.

حاولت إقناعه بأنّ المستقبل لا بدّ سيبتسم له؛ لكن عبثاً، حيث كان رفاقه يسخرون منه، والشائعات الكابوسية المغرضة تهزم أوهامي. وكان كلما فاجأني مرة، وأنا أحزم أمتعتي العسكرية، يدرك أنني ذاهب في مهمة فيأخذ بالبكاء. وعلى غرار جميع أطفال الجزائر، تعايش مع هول خبر عبثي قد يحيله يتيماً.

في مكسيكو ـ أي على بعد آلاف الكيلومترات من رمال الجزائر ـ وكلما ذهبت ليلاً للصلاة في جامع بولانكو، يكاد لا يغمض له جفن قبل عودتي. وغالباً ما كنت أظنّه يغطّ في نوم عميق، لكنه كان يباغتني في تأمّلي ويقفز عليّ فيضمني بقوة ليتأكد من أنني عدت فعلاً.

يا لوساخة الحرب!

من نافذة الطائرة لفتت نظري الأبنية التي تضيق المسافات في ما بينها. أحببت مكسيكو كثيراً؛ فالعاصمة كما ضواحيها غريبة ومجنونة عظمة بعض الشيء، مكتظّة بالحكايات وفقيرة بالمبادرات، تعجّ بعشرين مليون نسمة ومليون شبح وتتمسّك بماضيها إلى حدّ الهجس، كما أنها تسمح، طوعاً، بأن تغيّر ملامحها حداثةٌ غير ملائمة وفوضوية الهوى. إلّا أنها تبدو أقلّ حزناً على مستقبلها من حزنها على قبح أبراجها وتهجين جاداتها. وكمحارب أسطوري قديم مكسوّ بالميداليات كما بالندوب، كانت تجترّ أمجادها العابرة ساخرة بشدّة من سراب مستقبلٍ تخمّنه مفتقراً إلى الكاريزما كهرقليّ جوّال. إنها وهي واهنة إثر مذبح التضحيات، توافق أحياناً ـ لا ندري بأيّ خيمياء ـ على تسمية شوارعها بأسماء شعراء أجانب ورفد تنهّداتها بمسحة غنائية.

لا تؤمن مكسيسكو كثيراً بالولد العبقريّ لأنَّ أشباحها تكفيها. فهي شبيهة بماستودون مقدّس، تنطوي على روماتيزمها ورقيّاتها، حزينة وشفوقة على هنودها الصغار ذوي القلب الكبير، وعلى المتسكّعين الطارئين، وفولكلورها الألفي، وطقوسها الخاصة بالموت، والخراب الرهيب في أهراماتها العجيبة. وعلى الرغم من اطّراد الكوارث والخطوب المجهضة، لم تفقد كثيراً من كونها مدينة شبه مقدّسة، لأنّ التمازج المتناغم بين الأعراق والمعتقدات، والتجاور الهادىء بين العوَز والبذخ، حرب الربا من غير اقتناع ولا عداوة بين الكسل والتصلّب، هذه كلّها كانت تحيلها حتماً إحدى المدن الأكثر تسامحاً على الكوكب.

وداعاً، مكسيكو... المدينة الأولى التي جعلتني ألمس بأطراف أصابعي العالم الصغير الذي طالما حلمت به، والذي كان لي، أرضي الموعودة : عالم الكُتّاب.

شاءت المصادفة ـ أو الحظ ـ أن أقطن في كونديسا، وهو حيّ بورجوازي شهير بحاناته الفرنسية المناخ، بجوّه اللطيف ومثقّفيه. إنه، خاصةً، حيّ الروائيين. فكلّ مساء تقريباً، تقام المحاضرات في الطبقة الأرضية من المنزل الذي شاركني فيه شاعر

ألباني ناجٍ من ويلات كوسوفو، هو كزفديت بيراي.
وهكذا، رأيت فرساناً ماهرين رائعين يمرّون بالتتالي، كتّاباً من القارات جميعها، كما نشأت صداقة بيني وبين انريكيه سيرنا ـ وهو من القلّة التي تعتاش من كتبها، وفق ما همس لي كزيفديت ـ، ومونيكا منصور، المترجمة الماهرة، وانيدرا أميرتنياغان، الناشر السريلانكي الصلب واللطيف كخبز حلو، وجورج م. غوغلبرغر مدير الجامعة الأميركية في كوستاريكا والذي حاول اختراق كياني كما يفعل مغوّرو أحشاء بركان، وألفارو موتيس، وإدوار غليسان.. ..

ـ أتحبّ الأدب الجزائري ياسيّد غليسان؟

لقد حضر إدوار غليسان من كاليفورنيا لاحياء سلسلة محاضرات، عازماً على عدم إجهاد نفسه سدىً، وكان يشاركنا مائدة دعانا إليها فيليب أولليه-لابرون حيث كنا "ننقد" الطعام مشدودين إلى نكات الشاعر الكولومبي المدهش آلفارو موتيس، وهو صديق حميم لغارسيا ماركيز، والذي يعتبر واحداً من أهمّ الأقلام الخمسة في أميركا اللاتينية، وبمشاركة من بعض النساء، وبينهنّ سيلفي زوجة إدوار بحيث جاءت مداخلاتهنّ الخافتة وضحكاتهنّ الذكية لتضفي على عشائنا بعض الاحتفالية.

أما إدوار غليسان الذي كان يسترسل في تقطيع المقانق أمامه ثمّ يبلّلها بالعصير ويمضغها بأناقة فكان يسدّد اليّ نظرة أبنوسيّة ويروي:

ـ تعرّفتُ إلى كاتب ياسين في باريس بداية الستينيات. إنه رجل محترَم. (امتلأت عيناه بظلال ذكريات مؤلمة)، وأذكر أنني أنا من اضطلع بتقديم مسرحيته. كنا خرجنا للتوّ من الحرب الكولونيالية حيث استمرّت الانقسامات بين المجموعتين. اذاً، كان بديهياً أن تنزل على رأسنا رسالةُ تهديد تضمنت إنذاراً بأنّ أوّل من سيظهر على الساحة سيُقتَل. ربت ياسين بفرح على كتفي ودفعني نحو الخشبة. "إذهب يا إدوار بما أن الأمر على هذا النحو. لن تكون أبداً سوى شهيد آخر للثقافة". كان يتمتع بدرجة عالية من الفكاهة، لكن مزاجي لم يكن ملائماً للفكاهة تلك الليلة. صعدت اذاً إلى الخشبة وانتظرت، بتسليم توراتي، ألا يحدث سوء.

ابتسم بحزن، ففهمت شعوره، لكنني امتنعت عن التفكير بأن الأدب الجزائري يرتوي خاصةً من مناهل العنف.

حمل غليسان كأسه إلى شفتيه بطريقة ملكيّة، وكان انتقل من هنا إلى مكان في ذكرياته حيث استحوذته محطّة تأمّلية.

عاود ألفارو موتيس ممازحاته مقهقهاً بشيء من

التشنج. إنه رجل ضخم، يتكلّم عن البوهيميا التي تنتظرني بجدارياتها وطيشها، بسخائها وعقوقها، حيث ارتدادات الاطراء تُخرِس غالباً أفصح الخطباء؛ حركتان من وجه ألفارو، رماني بعدهما بنظرة ودودة. كان يعرف أنني كاتب، وأنني آتٍ من بلد حيث يتصارع الموت والدسيسة، وكان عليه أن يتساءل ماذا يمكن أن يغيّر طائش مغفّل مثلي ذو عيون غارقة في الرأس مثل أفكار دفينة.

أعود إلى معاكسة السيد غليسان، المتحمّس ككشفيّ يسرح في الطبيعة.

ـ هل سمعت بياسمينا خضرا؟

قال إدوار منحنياً بقوة على صحنه:

ـ قرأت له.

ـ وما رأيك؟

ارتسمت برطمة على شفتيه وحركة بديهية من رأسه يمنة ويسرة؛ المغمورون لا يثيرون حماسته. فكرت لحظة أن أكشف له أنني ياسمينا، لكن فات الأوان، لأنه كان قد رفع القناع قبل إبداء الاعتراض. أسفت لياسمينا خضرا. فإذا كان مرجع كإدوار غليسان يتحفّظ عن الكلام، فذاك يعني أن خضرا لم يُقنع..

لم ألحّ، إذ ربما ستضيء باريس فانوسها.

3

باريس!...

حطّت الطائرة في مطار شارل ديغول عند بزوغ النهار فقال لي: إمّا يكون الألف الثالث باريسياً أو لن يكون. إني أراه منذ الآن حائراً، وقد أعدّ للرحلة بألف تساؤل وشك، بحيث إنّ آفاقه لا تدعو إلى الارتياح، فهي شبيهة بالسراب، تتناسق لتتغلّب على الرؤية الأكثر ارتياباً.. إنّ عصراً جديداً يهلوس دوماً: يستجوبنا واعداً بأن يكون عادلاً لأنه سيكون هناك ثمّة غوبلز آخرون ولويس باستور آخرون أيضاً، وستكون حروب جديدة واحتفالات تذكارية جديدة، وسيكون لجميع مقابر العالم ضرائحها.

فالتاريخ يثبت لنا، بانتظام، أن مآسينا داخلنا، وأنّ صلواتنا تخطىء عنوانها حين نسعى إلى تحميل الشياطين ذنباً ما كان ممكناً حصوله لولانا نحن دون

سوانا. ولهذا فانّ أمنياتنا الأكثر تقوى لا تتخطّى قطّ جرح شفاهنا. ثمّ، مَن نحن لندّعي حظوة لا نستحقها؟ آلهة؟ تافهون جداً إزاء مسؤولية مماثلة. مخلوقات متفوّقة؟ غالباً ما تُبدي الخفافيش اعتدالاً يفوق اعتدالنا.

ولأنّ الهلع بشري كما السخرية فانّ الانسان يقلّد النعامة حتى يودي به الأمر إلى الموت. هكذا تسير البشرية، يعميها استكبارها إذ لا يرى الملهَمون فيها سوى نار، والمنجّمون سوى نيازك. وحيث تغامر النيات الحسنة وتَرفع نصباً تذكارية تطاردها جهنّم وينادى بالتدنيس؛ وحيث تُنصَب صواري الحلوى تقام المشانق، وهكذا سيواصل الحكماء التبشير في الصحراء، والأغنياء نهل سعاداتهم من كلّ تفاهة، والعباقرة مبعَدون بارادة مشاهير بلهاء، وستبقى قوة الشرف مثار حميّة وأكثر تأثيراً من السلاح. ..

حتماً، ستكون انفراجات أحياناً، والمصادفة ستصنع الأمور في الصورة الحسنة. لذا فان كلّ شيء مختلف تماماً إلى حين استثمار الأمر.

تنهّد زان بعد ظهوره أمامي من جديد متنكّراً بزيّ رئيس الخدم هذه المرّة .

ارتجل حركة شبيهة بحركة القرد، تذكّر بقرد الماكاك في ثوب وصيف. أشار إليّ برأسه إلى أنني ألامس البارانويا، فأشفق على مصيري، بخبثٍ عارم.

قدّم لي طبقاً فضياً، بتزلّف مريب قائلاً:

ـ لأنّ الوجبة ليست طعاماً حلالاً قادتني بديهتي إلى إعطائك سندويشاً مغذّياً وقانونياً تماماً من وجهة نظر الشريعة: سومون مدخّن وبعض الصلصة، والخيار المخلّل والفليفلة الخضراء والبندورة والبصل، في مزيج من الخلّ وزيت والزيتون.

التحلية جبنة فرنسية. لمَ تحديداً فرنسية؟ لأن لها مواصفات بقدر ما للآلة الكاتبة من مواصفات.

ـ لم أطلب شيئاً.

ـ لا داعي لازعاج نفسك. أنا عبقريّ صالح يا سيدي.

ـ ماذا تريد؟

ـ سعادتك ياسيدي. لا شيء سوى سعادتك. أنت شخص رائع، قطعاً. يزعجني أنك لا تنتبه لهذا الأسوأ خلفك الآن، ما عليك سوى مدّ يدك لتنال مجد استحقاقك. أنت تشتهر بموهبتك في كلّ مكان، فلمَ هذا القلق؟ عليك تعزيم ما تخمّر في أعماقك. إغمس إصبعك في حنجرتك واكشف هذه القذارة دفعةً واحدة، وحتى أقاصيها. لقد كنت رائعاً، وانتصرتَ على جميع مآزقك، وواجهت وحدك كعظيم. أنت إله حيّ. رعيتك تطالب بك بالحاح.

ـ ماذا تريد يا زان؟

مرتبكاً لعدم جدوى تملّقه، وضع الصينية على كرسيّ. ركع. جمع يديه تحت ذقنه وتوسّل اليّ:

ـ تتمّة للـ: خر\اف.. ..

ـ لامجال.

ـ رواية جميلة.. ..

ـ لا تتوقّع هذا. أرى بوضوح ما يدور في دماغك. لن أدعك قطّ تغتصب نساء أخريات بعد موتهنّ.

ـ النساء الأحياء ينفرن مني أكثر من نفورهنّ من تمساح. حاولت تعويضاً عن قباحاتي، وأنت تعرف هذا. لا صبية، لا أرملة، ولا مومس عجوز حتى، تتنازل وتكتشف الانسان الحساس والتعيس المتقوقع خلف عقوق جسده برغم أنّ الخالق نفسه هو الذي رسمه. أنظر إلى هذا الفم. كسرت مراياي جميعها. إنني أتلافى الاقتراب من سطح الماء، وهذا الجسد الملويّ كهجمة مخاتلة! تبّاً، في أيّ اتجاه كان اللّه يدير وجهه حين صنعني؟

ـ أنا من ابتكرتك.

ابتلع زان بؤسه الاستغفاري متشنّجاً. بحث عن وميض من الرحمة في حدقتي، هزهز رأسه، خائباً وحائراً ثم أردف بعد صمت عميق في محاولة مشوبة بالنفاق يصعب تبنّيها:

ـ كان في إمكانك مراعاتي.

ـ أنا كاتب. وعندي، لا شيء عرضياً أو مجانياً.

ـ ألم يكن هذا سهواً؟ ولا خبثاً؟

ـ لست سوى شخصية روائية يا زان.

فرك حاجبيه، فكّر، فكّر حيث كانت نظرته تترقّب نظراتي بينما كانت إصبعه تتردد نادمةً بين الإشارة نحوي أو عبور صدغه.

أخيراً، اختار النقاش:

ـ إن كنتُ وليد فكرك فانني لا أتحمّل أيّ مسؤولية عن الفظاعات التي ارتكبتها. كانت لديك أفكار فظيعة واخترعت شخصيات لتلبسها إياها.

ـ هذا صحيح تقريباً.

ـ ماذا عليّ أن أستنتج؟

ـ لست ملزماً بهذا. في أيّ حال، لن تفهم شيئاً.

نهض زان مذهولاً، حلّ ربطة عنقه لتحرير تفاحة آدم التي تبدو مخترقة رقبته، وبلع ريقه بقوّة.

ـ ماذا سأصير؟

ـ لا أعلم.

ـ لا تعلم؟

ـ حين يصل كتاب إلى المكتبة يتخطّى كاتبه.

رفض زان الأمر محاولاً تحريك عاطفتي في الوقت الذي كانت فيه دمعة بعيدة الاحتمال تبلّل رموشه.

يحاول بعد:

ـ بما أنك الاله الذي خلقني، فهل يمكنني، أقلّه، التطلّع إلى جنّتك؟

ـ لا جهنّم ولا جنّة لدى الكتّاب.

يئس زان.

حمل الصينية بيد مريضة، دار بهدوء حول نفسه وابتعد. كان هناك شعور بالموت ينتابه قسراً.

4

طويلاً، حسدت الكتّاب. لم أنُمّ على أعمالهم، ولم أتجاهل موهبتهم، إنّما حسدتهم فقط على حظوظهم. كانوا أحراراً، يسافرون، ينعمون بالجمهور الطامع بتواقيعهم، وبدا لي أنهم يفيدون مليّاً من سعادتهم ومن نجاحهم حين كان محظوراً عليّ الذهاب لاستلام الجوائز الأدبية التي كانت تمنح لي.

حسدتهم لدرجة أنني كلّما أخذت رزمة ورق وقلماً، سعيت أولاً إلى استعراض قدرتي وإثارة العجب لأثبت لهم أنّ انعدام حظي لا ينسحب على شعوري بالحرمان على عبقريتي، بل إنني كنت قادراً على الخلق تماماً كأيّ كاتب ذي امتياز.

اذاً، كنت أكتب وأكتب وفي داخلي حنق. كنت سريع الغضب، ورأسي شبيه بفجر شماليّ، أصمّ إزاء ما يدور حولي، كحطّاب. .. وكان غضبي يتصاعد

كبركان هائج بينما كنت ألهث تعباً، وبعد تفكير، أخلص إلى نصّ رديء إلى حدّ عدم التجرّؤ على إعادة قراءته من دون أن أخشى فقدان تقديري لذاتي.

كانت تعاستي مزدوجة وينتابني الخجل.

ذات يوم، بادرتني زوجتي بعد نفاد صبرها إزاء إحباطاتي: لا تسعَ لكي تكون الأفضل، حاول فقط أن تعطي أفضل ما لديك.

هنا الصواب تماماً. وضعت زوجتي الاصبع على الجرح الذي كان يعذّبني. أخيراً تمّ تشخيص مصدر الخلل الذي يسبّب هذياني. فجأة، استعاد توازني النفسي إشاراته ونقطة ارتكازه، وانتفت الحاجة إلى السخرية بحثاً في الخارج عمّا هو في متناولي: حقيقتي، تلك التي لا تحيد عن ذاتها اذا ما حشرتها في مرآة، تلك التي تختلط بأعذار حين أكون المخطىء.

وعيت ذاتي، فطردت شياطيني القديمة جميعها، بلا استثناء. ومنذئذٍ عرفت ما أريد، أدركت ما أنا قادر على فعله وما عليَّ التخلّص منه سريعاً.

الشهرة وجدتني حذراً إزاءها، فخوراً بمسيرتي لكن بشيء من الزهد. هذا برغم أنني لم أكن مبالياً أمام قشعريرة السكر بالذات. كان يهمني أن أضع بعض الماء في نبيذي. ستقولون إنَّ غوغول يسهر على الزرع

كفاية، والبرهان هذه البادرة المدهشة: إذ للمرة الأولى في حياتي، أتخذ قراراً، إنه القرار الأصعب، الأكثر غموضاً. أن أترك ما كنت أمسكه باصرار بين يديّ كي ألاحق خيط دخان؛ أن أترك كلّ شيء. البزّة، وظيفتي ضابطاً، عائلتي؛ وطني ـ من أجل حلم طفوليّ قديم... هل تردّدت؟ هل شككْت لحظة واحدة؟ لا أعرف. كنت كمن قذف إلى حدائق خارقة، دائراً حول نفسه وسط عرس من الألوان والروائح المدوّخة؛ فتارةً فقّاعات لمّاعة، وطوراً نشيد ذاتيّ... إنه أمر محيّر!

الجندي محمد، الذي خضع طويلاً، والذي خلناه مكوّناً نهائياً في حلقة من سلاسله الخاصة، رفع الجبل كما يرفع فحْلُ خيل مفتون الغبار من تحت حذائه بالأفق بحيث إنَّ كتبه محطّ الأنظار على مناضد المكتبات!

لكن من يتذكّر الأعوام الثمانية التي احتاجها كتابي الأول ليصدر لدى "لينال"... من يمكنه تصوّر محنة ذلك الانتظار الطويل حين كنت أنام كلّ ليلة على أمل النهوض في اليوم التالي ومجموعتي القصصية بين يدي؟ وبعد كم مرة من الرفض؟ وأيّ رفض؟ الحدّة المستحكمة بعلاقات اللجنة الجزائرية للقراءة. طبعاً، كان فقر نصوصي جليّاً، لكن لا شيء في نظري يبرّر

عنفاً مماثلاً. هكذا حدّقتُ طويلاً في مدوّنة تشير إلى الرفض للمرة الألف:

"كاتب هذا المخطوط محض ساديّ". رحت أبحث في تصرّفاتي كولد أصغر، صعب المراس، عن قسوة ما؛ عدا الحزن الرهيب الذي كابده ولدٌ جرّاء تخلّي أهله عنه. لا هامش لأيّ أذيّة. لم يخطر لي في أيّ لحظة أن أروي حكاية تثير عداوات. آنئذٍ، كانت الجزائر تخرج من كابوس استعماري طويل، ما أتاح لي التفكير بأنّ الطموحات بات مسموحاً بها. وحين كنت سجين المعسكر، لم أكن أعرف أنّ حزباً وحيداً يتفنّن في إذلال الضمائر والنفوس. فاللغة الخشبية تنتشر في كلّ مكان، والويل لمن يخالف!نظرة سريعة إلى أوضاع مثقفي البلد أفهمتني أنْ بين الهرطقة والتدنيس، كان الأدب يرتفع محرقة. واللعنة التي صعقت مولود معمري، وتهميش كاتب ياسين، اللامبالاة القاتلة ضدّ محمّد ديب، نفي شاعر الأمّة مفدي زكريّا؛ تلك كلّها كانت أخطاراً جدّية برسم الأقلام الشابّة. إنَّ الزعماء لا يمزحون، فللكلمات ترياقها، وأصغر هفوة تودي بصاحبها إمّا إلى التحقيق أو إلى السجن. وأيّ فكرة مغايرة للفكر الأحاديّ تهديد وتجديف؛ ولطالما استلهمت السلطة ردّ فعلها من الأعاصير المتدفّقة لخنق

سمكة صغيرة. أما السمكة الحمراء فتستدرّ العاطفة بهشاشتها، آمنة في وعائها الكريستال. هكذا أدركت الوجهين الاثنين للكتاب الجزائري. من ناحية، هناك الأشخاص غير المرغوب فيهم، ويندرج في هذا السياق، في رؤية الطغاة، الهدم المضاد للثوري؛ من الأخرى، مستكتبو السراي، المتماثلون وشوفينيّتهم المفرطة وضعف مواهبهم، أولئك المرفوعون إلى مقام حارسي الهيكل، المخوّلون تدريبنا على التعبّد للقادة، على مطاردة المشعوذين وعسس الاعدامات حرقاً.

- عن ماذا يبحث جنديّ في هذا السيرك؟ أيّ أمر يجهد لإثباته؟

- أهو أمهر من جليس الأمراء أم أكثر جنوناً من الفاسدين؟

لا هذا ولا ذاك؛ أردت فقط أن أكتب. لكن كيف أكتب من غير إهانة الآلهة؟

عبر تجاهلهم.

ببساطة.

كان ذلك واجباً.

هذا ما قمت به.

إذاً، غادرت إلى فرنسا، وأنا غير خائف، حاملاً ربّة فنّي، وعيناي أوسع من الابتسامة.

ظلّي يرافقني.
وقلبي على يدي، والنبع في القبضة الأخرى،
لذلك أنا مطمئنّ.

5

وكامرأة أرستقراطية مسنّة، استقبلتني باريس ببرودة، بمروحة عجول، وعينين تبرز منهما رموش مستعارة.

لقد غضبت لرؤيتي، كأنني شعرة في الحساء، أُفسد وليمتها ليلة رأس السنة فيما كانت تودّ احتفالاً بها في أقصى حالة من الحميميّة، مع ما يلزم فقط من الممالقين لتوبيخ الخدم أمامهم.

كعيكة شعرها كانت أعلى من الغيوم، والفستان أكثر اتساعاً من قتامة كانون الثاني. تظاهرت بملاعبة كلبها البكينيّ لتلافي مصافحتي على الرغم من أنّ يدها مغطاة بالقفّاز حتى الكوع.

ليلتي الأولى في فرنسا زارني خلالها كاتب ياسين فيما كنت نائماً؛ فثيابه كانت ذات لون أزرق باهت وصندلاه من الكاوتشوك، أما لحيته الصغيرة المشذّبة التي لم نألفه بها، فكانت تلطّف من بروز ذقنه. كان

يشبه هو شي مينه، لكنه، لم يكن يبالي هذه المرّة؛ فهمومه بادية في نظرته، ويبدو أنّ مناخ "عدن" لا يلائمه. لعلّه حزين لعجزه عن الذهاب لمساندة الرجال المساكين الذين يحترقون في أبعد مكان من جهنّم، لكن المعارف عقيمة لأنّ جميع الكتّاب ماضون إلى الجنّة طالما أنهم يحملون أحياءً، جحيم البشرية.

أخذتني يداه من كتفي، ولوتاني كقحّة.

ـ عمّ جئت تبحث هنا يا ياسمينة خضرا؟ عمّا عجزنا عن إيجاده أنا ومحمد ديب؟ (الغضب يتملّكه والغمّ يتطاير من وجهه). أتعتقد أننا تخاذلنا أو كنّا سيئي الحظ؟ لا شيء من هذا يا سيدي. ما فاتنا فقط هو البصيرة. هنا لا شيء لك، ما عدا الضغينة التي دمّرتني والمرارة التي تتآكل محمد ديب. في باريس كما في مرسيليا، في السافوا العليا أو في النورماندي، لن تصير سوى ما يريدونك أن تكونه، مشرّداً، بلا إطار اجتماعي ولا أوراق ثبوتية، كسيحاً على أبواب التحرّر المصفّحة. أنت لست موهبة بالنسبه إليهم، بل مجرّد فضول يتلاشى من تلقاء نفسه حالما يُلاحَظ. عُدْ إلى رشدك، لأنَّ الأبواق التي تنغّم احتفالك تقرع قرعة الحزن على غدك، وأنت لستَ سوى أحد الحوادث المتفرّقة، سوى قشّة مشتعلة سرعان ما تنطفىء، وما

تكتبه ليس إلّا رسالة ميتة، والمرء لا يحفظ سوى ما يناسب مصالحه. مُداسَة، ومن دون بوصلة ولا صدقيّة، هي ثقافة المنفى؛ إنها عيب شكليّ، وهي تظنّ نفسها مرغمة على الدعارة كي تبقى. يجب انقاذ ماء الوجه حين نفقد الروح، أمّا أنت فلست ممّن يتنازلون. في أي حال، جريء مَن يدفّعك الثمن غالياً. هنا، لا يحبّون الآلهة الوافدين من خارج، خاصة أولئك الذين لم يصنعوهم بأنفسهم. فهؤلاء الذين يصنعون أنفسهم يقصونهم إلى مصاف الدجّالين الذين يخترعون في كلّ زاوية شارع معجزات ليست سوى فولكلور سوقيّ على غرار باصقي النار، يسلّون حيناً، وغالباً ما يثيرون القلق.. لستَ في أرضك هنا، ولست في بيتك، لكن ليست فرنسا التي عليك مهاجمتها. إنَّ مصدر تعاستك هو وطنك الذي لم يعرف كيف يستحقّك.

قلت له فاكّاً أصابعه:

ـ لا يا شيخ. ليست الرياح نفسها التي قادت كلّاً منا إلى هنا، ولا الجنّيات عينها التي اختطفت كلينا. لا ثأر لي كي أسترده ولا شيء أراهن عليه، والادعاءات تخيفني بقدر ما تخيفني التعزيمات. أنا لستُ سوى حاجّ يمضي إلى حيث تحطّ صلواته ولا أحيا من الصَّدقات ولا أقرأ الكفّ. سعادتي في داخلي؛ لا أريد شيئاً من

أحد وفي هذا مجدي. كلّ الفرق هنا يا شيخ. أنتَ جئت تبحث عن شيء معيَّن، أما أنا فقد جئت أبحث عن شخص.

6

كان ناشرو كتبي ينتظرونني في "تران بلو" في محطة ليون حيث الزكام والتعب على وشك تدمير قدرة كنت أجهد للتظاهر بها.

صباحاً، أرتني المرآة وجهاً رخواً مجهولاً وعينين محاطتين بالسواد وملامح منهكة، أرتني وجهاً لامعقولاً حتى أنّ الابتسامة التي وجهتها اليّ بدت مكروبة.

فالأنف بدا محمرّاً لفرط استخدام المناديل الورقية، والنظرة مرتبكة. حاولت إيجاد ممرّ وسط الحشد، وفي السماء كانت تتلبّد سحب ضخمة تحرك سوادها قبل انفجارها دموعاً. في الأسفل، المدينة ترفع كفافها لتلافي رشاشات الماء، لكن برغم فظاظة الخريف، فإنّ الشوارع كانت تتفرّد بتأنّقها لأن باريس تتطلّع إلى ألق يتعذّر إحباطه.

اعترضتني بيتّي مياليه عند مدخل المطعم. إنها فاتنة

كمجاز، وقد لاحظتْ أنني هزلتُ لكنها تظاهرت بعدم الانتباه.

ـ تركتَ شاربيك ينموان.

ـ كي أهدّىء الحمّى وأحتفظ ببعض الـ"لوك" الباقي لي.

عناقها خَفر؛ قبلتها ملأى حماسة.

قادتني إلى زاوية هادئة تحمي من المتطفلين حيث جلس برنار بارّو يشغل أريكة ساعياً إلى ذروة من التوازن.

تحلّقنا حول القهوة، تحدّثنا عن المكسيك، عن الشمس الأزتيكية، عن البرد القارص، عن عائلتي الصغيرة الحائرة بسبب تغيّر الديكور واختلاف نظام التوقيت. ..

فتحت بيتّي حقيبتها وقدّمت لي كتابي الخارج للتوّ من المطبعة.

قلتُ متأثراً:

ـ رائع.

قالت:

ـ أحببته كثيراً.

انتقل برنار إلى الأمور الأكثر إلحاحاً عارضاً عليّ العقد.

انتظرت بيتّي أن أعيد قلمي إلى مكانه كي تعلن لي أنّ برنار بيفو يدعوني إلى برنامجه.

ابتسمت: منذ بضعة أشهر، عندما أعلن بيفو قراره إيقاف برنامجه، بادر ضبّاط إلى مضايقتي: "خسارة أنه تقاعد. كنا نترقّب بحماسة مرورك معه، يا للحزن!".

علّقتُ بمزيج من السرور والقلق في آن واحد:

ـ ربما كان في إمكانك العثور على مُحاور أقلّ مهارة لاطلالتي التلفزيونية الأولى.

طمأنتني بيتّي:

ـ إنه رجل رائع. ستسير الأمور على ما يرام، لكن قبل "بويّون دو كولتور" لديك موعد مع جان-لوك دوين لصحيفة لوموند. اللقاء هنا أيضاً، غداً الثالثة والنصف بعد الظهر.

نصحتني بمحاولة الاسترخاء نفسياً في الانتظار، لأنّ ثمّة معركة طويلة تترصّدنا.

وعدتها بأن أستعيد سريعاً رباطة جاشي.

كنت أحتفظ بنقطة ايجابية في ما خصّ لقائي مع جان-لوك دوان لأنني كنت أعرف شخصيته تقريباً منذ ظهوره في برنامج "بويّون دو كولتور" الذي أعادت بثّه TV5ـ القناة الفرنكوفونية الوحيدة التي ألتقطها في مكسيكو ـ قبل ثلاثة أسابيع، والرجل الذي وافاني إلى

"القطار الأزرق"، لا يختلف عن ضيف السيد بيفو. فوجهه مريح ولا ادّعاء في نظرته برغم احترافيته. إنه شخص جيّد، لكن لا بدّ من بعض الغمامات.

لقد توقع أيّ شخصية، باستثناء رجل نحيل جاف لا يشبه ابراهيم ليوب في شيء، ويصعب التصديق أنه قادر على الحدّة التي تتسم بها نصوصه.

خائب؟

حتماً.

لكن الصحافي تحامل على الصدمة. مدّ لي يده ِ كزعيم هندي يلتزم المصالحة .

كشف لي مستعيداً ابتسامته:

ـ كتابك ممتع. أجهل ما اذا توجّب عليّ أن أشكره أو أن أصمت.

كلّ ما ينتظره جاك-لوك هو نصّي، لذلك أدار المسجّل فوراً، وبدأت المقابلة.

بعد انتهاء التسجيل، بدا جاك-لوك مرتاحاً لأنّ الكاتب الذي دافع عنه من غير معرفته، بدا جديراً بالثقة. وبعد أن قام بتوظيب معدّاته بلباقة، أعدتُ، من ناحيتي، ترتيب ثيابي على مهل، وأسرعت من فوري أنشد فضائل باريس.

آه! من الاصرار العنيد القاضم للمواهب التي صارت أصلاً أكثر حدّة. فالمهرّجون يزعجونها، والرسميات توتّرها؛ باريس لا تراعي ولداً بدأ شبابه بالطيش أكثر من مراعاتها حليفاً أعرج مرتهناً لها لأنّ أناقتها وغناها يعفيانها من المجاملة، وهي لا تأبه سوى لروعتها. إنها نرسيسية حتى الغرق في مرآة.

لم تتغيّر قطّ منذ رأيتها آخر مرة. ثابتة في عجرفتها. أتساءل ماذا ستشبه إن تخلّت عن خيلائها. لكن باريس التي لا تكون إلّا مشرفة على عالمها، فانّ أقلّ ابتسامة تبدّلها، وقد أضع يدي في النار حتى تغفو بمكياجها.

آهٍ! الزمن يحدث دماراً حيث يواصل العمر التباسه، وإلفة خدم المنزل إهانة لا تسامح عليها. إنها وهي ترفض التباهي أمام الناس، تختبىء السيدة الأرستقراطية المسنّة خلف مروحتها. وهكذا تنسحب من الأماكن الحبلى بالسلفية المقلقة لأنَّ باريس لا تهضم الجمهورية بسهولة، ولكونها مولودة من تمجيد المملكة، فهي ترفض التنازل عن العرش. إنَّ استمراريتها تتلازم مع عظمتها، والأخيرة تتماهى معها، وهي إنْ تنهّدت فلكي تبقى على مسافة من تغيّرات الرياح. اللطافة لدى سكان الضواحي، والأناقة المخدّرة لدى حديثي النعمة، الـ"جيت-سيت" ذات لمعان الدرّة

الخيالية؛ وكلّ هذا البهرج المتباهي الساخر، وجميع هؤلاء السادة المحدَثون بلا صولجان ولا تهذيب حقيقي ـ الذين يحوّلون معقلاً إلى ورشة، ويجعلون من سلالة لائحة انتخابية ومن عرش كرسيّاً سخيفاً منجّداً ـ لن يلامسوا كثيراً نزقها، أما نبلها فيكمن تحديداً في عدم المبالغة بالقضايا البسيطة. بعد ذلك لفتني زان وهو يستند إلى جدار صغير أن أنتبه إلى ما تخلفه الكلاب وراءها على الأرصفة.

7

فندق بوون العاشرة والنصف مساءً.

فالحاج موريس الذي يشغل الكنبة مستلقياً كدرويش بدا قرمزيّ اللون، يلهث ويتعرّق.. بدا كفطيرة ضخمة رُفِعَت ثمّ راحت تقطر ببطء على الطاولة.

الحاج موريس جزائريّ ذو "دم" فرنسي. إنه رجل ثمانيني طيب القلب، يسترخي طيلة النهار في واجهة داره. لقد حقّق بعض الحضور اللافت في خراف السيد، قبل أن ينحره بوحشية شابٌ من الاسلاميين المتطرّفين في قريته، والمفارقة أنه كان يظنّ نفسه في حمايته. كان يكنّ لبلده حبّاً نادراً لم نعرف مثيلاً له حتى لدى المواطنين الأصليين. ولأنه رفض المنفى صفّته حركة الــGIA (الجماعات الإسلامية المسلحة). وأثارت جريمة قتله نقمةً هائلة، لكنّ الناقمين فضّلوا الصمت. إلّا أنّ القصة ليست هنا.

لما رآني مقبلاً، وضع مروحته جانباً وفتح جريدته فوق بطنه وبادرني بابتسامة مرهقة. صفحة بكاملها في الـ "لوموند". دانيال روندو خصّك بمقالته في الـ "اكسبرس". اينياسيو سيمبريرو أهداك الصفحة الأخيرة من الـ "بايس". هكذا يبدو أنّ انطلاقتك جيدة.

إصبعه أخذت تطبطب على صورة كأنها طالعة من فخّ.

ـ صورة مؤثّرة. حدّقت مرتين كي أتعرف اليك. بداية، ظننتها لأحد الناجين من مجاعة في السودان أو لعنصر من الخمير الحمر على منصّة الاعدام. فهل تنبهت لنظرتك هنا؟ إنها كفيلة بإجهاض حمارة.

ـ أنا الآخر لم أحببها.

ـ لماذا؟

ـ لم أكن مؤهّلاً لجلسة تصوير. لقد خسرت ثمانية عشر كيلوغراماً، وكنت مريضاً جداً وأنفي يرشح.

ـ لطالما بدوت بشعاً، سوى أنك هنا أكثر صرامة. إنك غول حقيقي، وإنّ صورة مماثلة لك معلّقة على جدار الصالون لن تثير مشاكل مع الأبناء والأحفاد.

أبعد إصبعه عن الصورة مخلّفاً بقعة رطبة ومتنقّلاً على بقية الصفحة.

ـ مقابلتك صادقة لكنها مقلقة في بعض محطاتها.

المشكلة أنني لا أدري كيف أشرح لك هذا من غير إغضابك.

ـ حاول في أي حال.

تردّد وهو يمسح جبينه المتعرّق بطرف ثوبه. تنشّق، مرّر لسانه على شفتيه، فأسنانه. ..

ـ أنا أنتظر ما ستقوله يا حاج. ..

وبايماءة من يديه دعاني إلى الاحتفاظ بهدوئي.

ـ كم عاماً حاربت كي تصل إلى هنا، يا خضرا؟

ـ عمراً بكامله.

هل تعتقد صدقاً أنّ لك الحقّ في تبديد تضحيات كثيرة لمجرّد أنك تصير الآن الرجل الذي أردت دوماً أن تكونه؟

ـ لا أفهم.

ـ ولا أنا. ما الذي دفعك إلى الدفاع عن جيش مُدان في كلّ مكان؟ هذا لا يستحق المعروف. ثمّ إنك لست مديناً له بشيء. سأكون تعيساً إن عملت على إسقاط نجمتك الوحيدة التي لمعت حقاً لك.

ـ علّمني الأدب أن الحقيقة لا يُفاوَض عليها. وإنْ كنت امتنعتُ دوماً عن الأكل عندما يعضّني الجوع، فلأنني لا آكل من أيّ "معلف".

ـ الحقيقة سلاح ذو حدّين.

- أنت من يقول لي هذا يا حاج. ..

أخفض رأسه.

ـ هل تقوى هذه اليد التي تكتب على لوي عنق صبيّ؟

ـ كلا.

ـ.. . امرأة؟

ـ ديك؟

ـ كلا.

هل أصدقائي الذين دفنتهم مجرمون؟

ـ كلا.

ـ هل أستطيع التنازل عن حلمي الوحيد كي أحمي قاتل أطفال؟

ـ كلا.

ـ هل يمكنني احتساء قدح من الشاي قرب من يخنق قططاً؟

هل أنا من يدير ظهره لقبرِ بطل لوقاية عينيه من الشمس؟ أو من يقف أمام تلك الشمس نفسها كي يرمي ظلّه على ما تبقّى؟

ـ كلا، كلا، كلا. ..

ـ هل كذبت مرة أو خدعت أو خنتُ؟

كلا.

ـ اذاً، ممَّ تريدني أن أخاف يا حاج؟

ـ البشر حقيرون.

ـ أنا واحد منهم، ولست كذلك.

فكّر طويلاً، المروحة في محاذاة صدغيه، حيث انحدرت من أحدهما قطرة عرق كبيرة ترنّحت ثمّ استقرّت فوق ذقنه. كان تنفّسه يهزّ خيوط الدخان العنكبوتية في الغرفة عندما أمسك نفسه في لحظات تأمّل ثمّ زنّرني بنظرته، وحين أدرك صعود غضبي قدّم اليّ كرسياً وإناءً خزفياً مملوءاً لوزاً مشوياً.

ـ تأخّر الوقت.

ألحّ مسترضياً:

ـ يمكنك أن تمنح دقيقة لميت. لن نفترق على سوء تفاهم. .. ومع بيفو؟

ـ كانت المقابلة سريعة. لديّ انطباع وكأنني لم أقل شيئاً.

ـ في البلد، الهواتف تقفز لكثرة رنينها في هذا الوقت. ثمة صدمة كبرى لكثيرين. ومن جهتي، فإنني أتساءل كيف ستعالج العاصفة التالية.

ـ عبرتُ ظروفاً أسوأ.

ـ هذا ما يقال عامةً. سريعاً جداً، سنفهم أنّ الأسوأ سيأتي. وفي رأيي، ينبغي البقاء في موقع

الدفاع. لستَ كشفاً بسيطاً بل إنك رهان كبير. لذلك سيسعى بعضهم إلى التلاعب بك، وبعضهم الآخر إلى استعادتك، وآخرون أيضاً إلى صلبك. فاعتباراً من هذا المساء ستنطلق الزوابع. ولو كنت مكانك، لتفحّصت مالي كلما وضعت يدي في جيبي. أنت لست في أرضك. تلك الليلة لم يكن كاتب ياسين مخطئاً تماماً.

ـ كيف عرفت؟

ـ لا أسرار لدى الموتى.

نظرتُ إلى ساعتي لافهامه كم أحتاج للذهاب إلى النوم. وبإيماءة موافقة من رأسه، طوى الجريدة ثمّ عاد إلى التهوئة بمروحته. نظرته المهيبة كانت مسلّطة على نظراتي؛ حاول إضافة كلمة لكنني سبقته مبادراً بالتوجّه إلى المصعد:

ـ تصبح على خير.

ـ تماماً، يا سيدي، على أمل أن تحمل هذه الليلة النصح السديد لكلينا.

حين وصل المصعد الكهربائي، انحنى قليلاً كي يتمكن من رؤيتي وقال:

ـ يحقّ للمحارب المقدام نسيان قدم في ساحة المعركة، لكن في المقابل، محظور عليه قطعاً المشي على لعنته.

ـ وصلت الرسالة.

8

غرفتي مظلمة، وخيوط ضوء الفجر المتسلّلة من الأباجور أخافتني من الأسوأ. كنت مرهقاً مع معرفتي أنني لن أنام بسهولة لأنَّ مخاوفي تغطّي الجدران، ويتبلّل غطاء سريري بنداوة قارصة، وأرقي يرصد حيرتي.

على الطاولة الصغيرة قرب السرير، يوجد مغلف من ملحقتنا الاعلامية ماري لور غوميه: حوارات لصحيفة ليبراسيون، لونوفيل اوبسرفاتور ومحطات اذاعة وتلفزيون ألمانية، وليبرتيه DZ، ومرتين فرانس انتر، مرتين RFI، Beur FM، TV5، صحيفة بلجيكية، صحيفة دنماركية، بالإضافة إلى موعد مع السيد جان دانيال، روبورتاج لصحيفة الساعة الثامنة التابعة لفرانس 2.. .. . مما يكفل إسعاد أمة بأسرها.

أتساءل لماذا لا تكفي كلّ هذه الأذرعة التي تفتح

لي لإبعاد الانبعاثات اللامتناهية التي تتلفني، ولصدّ ذعري المستجدّ؟ فهل عليّ أن أمضي حتى الأقصى بفكرة أن ليس كل ما يلمع ذهباً؟ ولماذا لا أفيد من سعادات اليوم وأرجىء آلام الغد إلى وقت لاحق؟

تمدّدت فوق السرير، شابكاً أصابعي خلف عنقي ومحدّقاً في السقف. فكّرت في أولادي المتروكين لأمرهم في مدينة بعيدة حيث لم يتح لي الوقت حتى أن آخذ بعض نقاط الاستدلال اليها. تركت طفلي يتعذّب، ولا أجرؤ على الاتصال بزوجتي التي تذبل بعيداً عن وهران، مسقطها، والتي لا تفوت أيّ فرصة لتذكيري بها. وهي إنْ حقدت عليّ فلأنني أبعدتها عن روائح المدينة الجديدة، عن دفء الـ"سان أنطوان" وعاطفة أقربائها، لأنني أقحمتها في قصة غامضة الفحوى، لا تعي ثقل التزاماتها ويُخشى أن تتصدّع في أيّ لحظة كمقلب هزليّ. أصلاً، في مكسيكو، كانت تشعر بالغربة التي تبعدها عن شواطئ الجزائر.

لقد باتت الآن تحمّلني وزر كلّ غيمة طارئة في السماء الفرنسية، وكلّ سعال يحدث في غرفة الأطفال. بدأت، على وجه الخصوص، ترفض أولوية هذه المهنة الملعونة التي هي أكثر ما "تعني" لي في هذا الكون. . .

ليس هذا صحيحاً. وهذه المهنة ليست كلّ شيء في

عينيّ، حتى لو ساوت عندي مجموع خيباتي. إنني لست مغفّلاً ولا مبهوراً لكنني أعرف أن الأمر ليس سوى حلم طفوليّ قديم، زاهٍ وعابر كما جميع الأحلام الطفولية؛ تلك الأحلام التي تشكّل الملاذ حيث الواقع محبط وحيث تثقل الكآبة حتى المبالغة، وحين تحصل الكارثة، يقضي الأمل بالانبعاث من الرماد، لا على غرار السمندل أو الزومبي، لكن تحديداً للسماح لعجلة القدر بالدوران كي تؤمّن بعض ماء لطاحونة كلّ منا.

حان دوري كي أمدّ يدي للحظ، فهل عليّ أن أظنّ أنه قرع بابي سهواً؟ أنا أتمسّك بتقليد حسن الضيافة، أمدّ يدي حتى إلى عدوّي إن أراد مصافحتي، ولا أسعى لمعرفة ما اذا كانت بادرتي انتهاكاً أم تهوّراً؛ في أيّ حال أتحمّل المسؤولية بنفسي. لقد أتيتُ إلى فرنسا لمواجهة نفسي، ولأرى بعينيّ ما في داخلي، وكي ألمس بأصابعي نبض قناعاتي. لذلك لا أتوقّع أن أنزل القمر من سمائه، مع إدراكي لعجزي عن شرب البحر، لكنني أريد أن أفهم ما اذا كانت المعاناة هي التي تدفعني إلى الحلم، أم أن الحلم هو ما يسبّب لي المعاناة، ولماذا، بخلاف مئات الصِّبية الذين أتقاسم معهم عيوبي، قررت أن أتعذّب مرتين من جرّاء النكبة عينها.

ليس هذاالعالم هو الأفضل، لذلك ينبغي ألّا

أُخدَع. إنه فقط العالم الذي أحببت حين سيطر الفشل على حياتي. أهو جميل؟ أودّ جداً أن أصدّق هذا، كما المرأة التي نتزوّج بها، والتي نعلنها الأجمل لأنها حرّكتنا أكثر بقليل من الأخريات، مما يجعلها تفيد من حناننا، وحين نعود إلى واقعيّتنا ندرك إلى أيّ درجة هي عادية، إن لم نقل كأي امرأة أخرى.

أرى خيباتي تغلّف سمائي التي عثرتُ عليها من جديد فأتساءل ما اذا كان جمالي أنا، هو في النهاية ما سحرني فيها. ..

فجأةً، دوّى ضجيج في الغرفة المجاورة. ركضت فرأيت فريديريك نيتشيه أرضاً، مثخن الوجه، فيما كان راسبوتين ينقضّ عليه رفساً وشتائم فاجرة. فالفيلسوف لا يحاول النهوض حتى أو الهرب، ومهاجمه ذو الشعر الطائر كزوبعة والعينين الجاحظتين، هائج في مشهد هستيري في جبّته القذرة بينما يتطاير تجديفه في الأرجاء رشقات سامة في حالة غليان. فجأة، انتبه إلى حضوري فكبح جنونه فوراً، ثم زمجر مداعباً لحيته بعنف:

ـ أيها القذر! يا مدوس! لا تتسلَّ بالوقوف في طريقي لأنني قد أمشي على جسدك إلى أن يخرج برازك من أذنيك.

ألقى نظرة أخيرة على ضحيته الممدّدة عند قدميه

وقفز فوقها متدحرجاً على الدرج كصخرة من أعالي جبل كليمنجارو.

أخذ نيتشيه يئن، حيث ذراعاه مثبتتان حول رأسه اتّقاءً للضربات.

أعلمتُهُ:

ـ لقد ذهب.

وضع يديه حول خصره كي يجلس، لوى رأسه على طريقة ملاكم دائخ، جرّ نفسه نحو النافذة ورأى جلّاده يمشي في اتجاه السين.

ـ يا هذا! يا زرداشت! تذكّر أقوالك: "هنا تنهار القمم والأقواس (. . .) في النضال: النور والظلمة يتصارعان بجهد عظيم". دار زرداشت حول نفسه، وجّه إليه إيماءة ساخرة واختفى مبتعداً إلى آخر الشارع.

أعاد نيتشيه إغلاق النافذة وسقط.

قلت له مستنكراً:

ـ لا أسمح بتاتاً لأي من شخوصي بأن يرفع إصبعه في وجهي.

فرك حاجبيه حين اكتشف وجودي في غرفته.

ـ منذ متى أنت هنا؟

ـ منذ بداية المشهد.

أمسك رأسه بيديه الاثنتين، محاولاً استعادة رشده.

مددت له يدي لمساعدته على النهوض. أزاحها بحركة اشمئزاز، تمكّن من الوقوف وذهب مترنّحاً إلى غرفة الاستحمام لمعرفة الأذى اللاحق به.

سمعته يدمدم:

ـ ألْحق بفمي ضرراً كبيراً.

ثمّ عاد مغطّياً وجهه بمحرمة ملطّخة دماً.

قال مغتاظاً:

ـ أأنا من يُفعل به هكذا؟

ـ علامَ كنتما تتقاتلان؟

ـ على الخلود.

ـ يعني؟

ـ يرى زرادشت أنني أضعه في الظلّ.

ـ لكنه ملهمٌ برغم كل هذا.

- تماماً.

تهاوى وسقط فوق كرسيّ. أنفه أخذ ينزف، أما شفتاه الممزقتان فكانتا فاغرتين في وجهه كما ثقب في بندقية صيد.

- أتريد أن أحضر طبيباً.

- في هذه الساعة؟

- ثمة أطباء يعملون ليلاً.

ـ كلا. فأنا أحتاج أن أكون وحيداً. من فضلك، أغلق الباب وراءك.

انسحبت على رؤوس أصابعي.

استمرت العتمة في غرفتي، حيث المجابهة مع وسادتي كانت تبدو مريعة. سأراقب شخير جاري حتى الصباح. عبثاً.

II

الصدمة

9

الألم الذي دام طويلاً يخلّف فراغاً مترامياً لدى زواله.

والآن، وقد توقفت عن كوني جندياً، فمن أنا؟

الآن وقد صرت أخالف الأوامر وأتمرّد على المشية المنزَلة، ولم أعدْ مجبراً على أداء التحية كلما أطلّ من هو أعلى مني رتبة، ماذا سأفعل بحياتي العسكرية التي أجرجرها كمجموعة قنابل؛ كيف أتخلّص من الارتكاسات البافلوفيّة، وكيف أضطلع بسلوك يجعلني أنا نفسي لا شيء سوى نفسي، أي إنه يجعلني شخصاً ما، أجهله تماماً؟

فهل يكفي الهواء الذي ينفخ قميصي كي يكبر شراعي؟

والآفاق التي يُصطَلح أنها العدو الذي امتنع عن المخاطرة بنفسه، فهل أمست أقلّ غدراً من الأمس؟

إنه فيض من التساؤلات يدمي ليالي أرقي الطويلة ويبعد نهاراتي كأنها مرضى الطاعون.

يخشى الضابط خوض معركته على ساحة يجهلها، ويعتبر نفسه عارياً من بزّة الواجب، عارياً أعزل من سلاحه.

من جهتي، لا أزال غير خائف، غير أن الأسئلة التي تساورني تخون قدراً من النقائص في درع يقينياتي.

وكممسوس يستردّ روحه أكتشف، الآن، فداحة وحدتي. ومع أنَّ الرقية لا تنجّيني، بل تسلّمني إلى ذاتي فقد تمنّيتها دوماً، ودفعت باهظاً ثمن كلّ جلسة؛ إلّا أنه ذات مرة، راودني فجأة شعور بأنني سوف أفتقد شياطيني.

رنّ الهاتف فيما أنا ملتحف في سريري. ومن مكتب الاستقبال علمت أنّ فلورانس أوبنا من الليبيراسيون، قد وصلت.

ارتديت ثيابي، لكنني أهدرت وقتاً بهدف ترتيب شعري الذي لا يفلح الـ"جيل" في ترويضه في الاتجاه السليم. ولقد تأكدت من خلال المرآة أن السواد حول عينيّ لا يزال ظاهراً، وأن خدّيَّ يغرزان ثقبيهما باحكام. لا أنام كفاية، آكل قليلاً جداً وأدخّن بضراوة، ولو كنت حصاناً لما راهنت لحظة على نجاحي.

فلورانس أوبنا في الصالون. هي ليست بمفردها

لكنها منزوية مع الضابط موليسهول الذي ترفض مغازلته. إنها امرأة لامعة، لها جمال ذكائها، وقوة أنوثتها، وثبات جريدتها. ومن الأكيد أنّ الكاتب ليس من يثير اهتمامها؛ بل إنها حضرت خصيصاً من أجل الضابط.

وكصحافية متماسكة متسلحة بقلمها المجرب في كل المعارك، انخرطت في المعركة. فهي، بوضوح، لا تحب خضر بسبب ظهوره بوجهين. إلّا أنها لا تكرهه مع أنها قد صُدمت. فقد كانت تتوقع الحصول على اعترافات مُدوِّية إلّا أنها لم تحصل إلّا على صدق مملّ لا يتزعزع يشبه تصريحاً عن الشرف. كانت تبحث عن الفجوة في الجهاز العسكري، تلتف على العقبات، تراقب الخنادق وتحاول الإلهاء. ملتفة على نفسها. كان يثيرها أن تقاوِم، وأن تحوم حول البرج الحصين، تسترجع بعض التصدّعات من نوع الخدعة الفظّة، وتتورّط في إثارتها من أجل مقالتها الافتتاحية، المحترفة حتى الخرطوشة الأخيرة. إنها ترفض فكرة أن لا شيء وراء الأكمة، وأن يشكّل هذا العسكريّ استثناءً على القاعدة على الرغم من فظاظته وسمعة مؤسسته المقزِّزة.

ومن مجثمي، كنت أرقب معركة المواجهة المدروسة ولا أنبس ببنت شفة.

من جهته الضابط موليسهول كان مصدوماً هو الآخر كونه يظنّ أنّ الحرب منظّمة، وهو حزين لأنه شهد مبارزة طرشان حيث الأسلحة الخادعة تخطىء الهدف.

في النهاية، تراجعت فلورانس أوبنا بسبب الاستثناء. ولأنّ الأبطال الأصيلين لا يقاسون بطواحين الهواء ولا يتحالفون مع الطغاة فقد أقفلت حقيبتها كما تقفل مقالة كيفما اتفق. أرجعت كرسيها إلى الخلف، طالبةً إلى المصوّر "توفير" فيلمه لأنّ الموضوع لا يستحق.

وقبل استئذانها للانصراف، استشهدت بموريتوري:

"لا أظنّ أنني سأنظر يوماً إلى مواطنيّ بعينيّ الماضي. ولن أشعر بأيّ حقد، أصلاً لا مكان له في حزني، إلّا أنّ كل تدلّل النساء الوقحات لن يفلح في مصالحتي مع أولئك الذين أقدّر أنهم الأشخاص المحتملون الذين دمّروني. ولن يساورني إزاء أصدقائي سوى شعور ملطّف، وجيراني القريبون لن يكونوا أكثر إلفة من هنود وايومينغ".

وأردفت:

ـ في الجزائر، لا شيء أكثر يُنهض الشرطي أو الضابط من هذا الشعور. وبتجرّد أكبر، كشف مسؤول

آخر: "حين عرفنا في العام 1992 أن الشعب كان صوّت للجبهة الاسلامية للانقاذ، فكّرنا: "القذرون، يريدون الحرب. ستكون لهم. منذئذٍ، صار كلّ جزائري عدوّنا. كان الشعب بكامله معرّضاً للقهر".

بادرتها:

ـ ليس هذا ما أوضحه. ولا أعتبرهم قذرين هؤلاء الذين أدافع عنهم. فالذين شاؤوا الحرب كانوا أول الهاربين. أنا لم أشأ الحرب، لهذا خضتها بلا خداع.

لم تكن الصحافية تصغي إليّ بل كانت تحدّق مليّاً في المقدّم، الحزين لرؤية وجهٍ بهذا الجمال متشنّجاً.

صاحت:

ـ أعتقد أن من يترك مهنته في الجزائر يتراجع ظهوره عمّا كان عليه قبلاً .

ـ يحقّ لك سيدتي أن تعتقدي هذا، لكنك مخطئة في ظنّك.

غادرت الفندق كمن خلّف وراءه قضية من دون استدعاء أو طعن.

في هذه اللحظة تحديداً، ندمتُ لأنني لم أبقَ وقتاً أطول مع جان-لوك دوين .

وصلت ماري-لور غوميه محمرّة الأنف من شدّة

الصقيع. وبابتسامة عريضة هيّأت نفسي لاستقبالها ومصافحتها لكنها تخطّتني وسارعت إلى تقبيل المقدّم.

ـ كيف كان الحوار لـ"ليبيراسيون"؟

ـ شبيهاً بحرب. ستنزل ناراً على رأسي.

ـ لا عليك. فزت بمقالات رائعة.

الاجماع مريب على المدى الطويل.. .. التاكسي في انتظارنا، والناس أيضاً .

قفز الاثنان إلى الخارج متجاهلين وجودي.

لم تبالغ ماري-لور: الجميع ينتظر الضابط والروائي المتناقض الأطوار. فمن فرانس أنتير إلى تي في 5، مروراً بالمقابلات الطارئة، الاستقبال الحار هو هو، المحبَّب، التلقائي على مدى أيام وأيام، حيث قبضات الأيدي كانت متضامنة، ودّية؛ والاهتمام صادقاً والحوارات صريحة. لكنّ الأكيد أن الحديث يستأثر بالالتباس المسيطر على البلد أكثر منه بالأدب. أما المرّة الوحيدة التي استُقبلتُ فيها كاتباً على خشبةِ " A toute allure "، فكانت مع جيرار لوفور وماري كولمان وهما شخصان لذيذان. أما من ناحيته فتراه لا يتذمّر من الأمر. إنه مساير، حماسيّ، متبجّح، راح يشعر برغبة في حجب الروائي، وتلك سماجة لا أهضمها بسهولة. غير أنّ "النفي" الخفيف ليس الا

ظرفياً. فالألمان، ويحاورني كثيرون منهم، والبلجيكيون، والسويسريون، والاسبان، والايطاليون وكذلك العرب، يركّزون طبعاً على خصوصيتي من غير إغفال الأساس. أمّا بالنسبة إلى الجزائريين فثمة الصّعقة وفقاً للأصول الواجبة. أخيراً اكتشفوا كاتبهم، ذاك الذي يروي قصتهم حقاً، الذي يشبههم كما الأضواء وسط الظلمات، وحيث يُراد للحوارات أن تكون "اكتشافاً"، وقتاً للعيد. فعلي غانم للـ"كوتيديان دوران" بسيكاره النباب وروحه الطفولية، وبشغفه الذي يهدّىء غضبي والحبور الذي يحرّكه هو سعيد ومزهوّ لأنه وضع وجهاً لأحد الأسماء المستعارة الأكثر غرابة في العقد الأخير، ثم ذهبية عيط منصور اللاهثة بسبب تأخرها جرّاء حريق في القطار؛ إنها مراسلة استثنائية لـ"ليبيرتيه". وخَفرها يحيّرني. من ثمّ، سيد أحمد سميّان، المسمّى "س. أ. س"، الكاتب الأسطوري في "لو ماتان"، فهو منافس قليل الحظ لكنه ذو شجاعة خارقة؛ أنا مندهش بشبابه وبتواضعه، وهو من ثابر أعواماً على مقاومة المتطرفين والـ"دا مخلص" للنظام متوقعاً سقوطه في أي لحظة وفي أيّ مكان. لقد كانت أصداء البلد تثير الذهول، ونادراً ما كرّمت الصحافة الجزائرية أحد أبناء البلد بهذا المستوى من الحرارة

والعاطفة. في هذه الأثناء، اتّصل بي والدي لاعلامي بأن هاتفه يرنّ بجنون، وعلى طرفه الآخر مجموعة وجهاء وحانوتيين وضباط وجامعيين ونساء ومعارف قدماء وأصدقاء طفولة. .. دمعت عيناي تأثّراً لكنني تماسكت، لأن أوقات بهجتي القليلة مرفقة دوماً بمساوىء، لا أذكر أنني عشت مرة لحظات سعادة من غير أن أعاني في الدقيقة التالية.

10

إنني شديد الحساسية بحيث إنّ خدشاً صغيراً يتكفّل بإحباطي، فإنْ أحبّني آلاف الناس، فهذا جيد جداً بالنسبة لي؛ أما أن يرفض واحد هذا الحب، فإنّ من شأن ذلك أن يُفسد عليّ سعادتي. لا أدري إلامَ يعود هذا؛ ربما لأنني لم أكره أحداً قطّ، لذلك فإن أقل فظاظة تصعقني، على غرارالنوتة المغلوطة الوحيدة التي تفسد سحراً تجهد أوركسترا بكاملها لإحداثه.

يسألني صحافي لماذا عنونت كتابي "الكاتب"، فأجيبه بأنهم كانوا يلقبونني بهذا، ولداً، وفي الجندية. لم يرضه الردّ. ثم بادرني بنبرة فظّة: "ألا ترى أن ثمة ادّعاء في اعتبار نفسك كاتباً؟".

لزمني وقت طويل للاقتناع بأنني لم أسمع شيئاً خطأً.

لاحقاً، كتب اليّ راهب فرنسي في رسالة مؤثرة "تلقّيت كتابك مثل نعمة".

عجزت عن الحسم. فمن الذي كان على حق؟ الصحافي أم الأخ فرنسوا-نويل دومان من سان-سافوزيان؟

لكن زوجتي أكدت لي:

ـ كلاهما مصيب. والسبب أنت.

بيد أن سماجة الأول مسّتني أعمق من طيبة الثاني.

ثم توالت كراهيات أخرى.. ..

صحافي شهير ذو عينين زرقاوين مرعبتين اعترف لي صراحة أن قصتي تتعثر، وأنَّ ثقته بي لا تتخطى ثقته بأخبث الأفاعي. هو يعرف الجزائر كما يعرف فتحة خزنته، وإنّ جندياً يكتب قصص بولار تخريبية من غير بركة سلاطينه، لا يتخطى تخييله السلسلة المصنّفة بأنه لا يبهج سوى هرّ على قذاراته.

الحوار لن ينشر.

الحوارات التالية كذلك.

إنها بداية سوء التفاهم.

واقفاً خلف النافذة في غرفتي الفندقية، أحاول استكشاف شرارة ما في سماء فرنسا المتضخمة حيث الليل الباريسي يحذّرني: أنظر، لكن لا تلمس شيئاً. إنْ أتيت بحثاً عن مكان لك تحت الشمس، ففي باريس الشمس دخيلة.

صوت آخر نصحني:

ـ لا تدع الشك يسيطر عليك.

إنه مزعج. سيحسب نفسه في موطنه، وتالياً سيستحيل طرده.

ـ باريس مترددة إزاء حالتي.

ـ باريس لا تقدّرك كما ينبغي. إنها مدينة جميلة جداً. مغرورة قليلاً، وهذا يلائمها. حتى النيويوركيون يحسدون الفرنسيين عليها. هي سرة الطبقات الرفيعة المقام، أبّهتها ثمالة وحماستها معرفة.

ـ ومناخها المكفهرّ؟

ـ ليس البخار على زجاج النوافذ بل على زجاج نظارتيك.

استدرت، فشاهدت الضابط موليسهول عابساً ومتكئاً على السرير.

الخصوصية تثير فضولاً أكثر من المهارة. هذا ظلم، حسناً ماذا بعد؟ ثمة عقبات لامعقولة. نحاول معالجتها؛ لا مجال للمسايرة هنا. للأسف، هو الأمر هكذا.

ـ ياه. ..

تقدّم خطوة، ثم تراجع لرؤيتي متصلباً، عاد إلى الزاوية حيث كان باحثاً عن الأفعل.

إنه حزين، وهذا ما يضاعف اضطرابي ويصعّد من تأججي.

ـ لمَ لا يدعني وشأني في النهاية؟

أدرك الضابط أنه حضر في الوقت غير المناسب، وبأنه غير مرغوب فيه، وهو لا يقوم بشيء سوى أنه يسمّم الجوّ بيننا، مثيراً نفوري بصورة مهينة.

ـ أخجل أن أحلّ محلّك يوم تكريسك.

- لن تنتهي الدنيا هنا.

ـ صدّقني لا أسامح نفسي على المجازفة بحظوظك كاتباً.

ـ لقد أفسدت تماماً مهنتك ضابطاً، أليس كذلك؟

استجمع جرأته قبل أن يمدّ لي يده.

لم أصافحه، بل فضّلت مواجهة النافذة، زجاجها البارد وظلمة السماء. ظلّي قدّم لي عنقه. حتماً.

من خلفي كان الضوء الشحيح المتسلّل من الأباجور يوحي بالغروب، لذلك، فإنه من الجنون أن تتجاوز الأمور ذاتها حين ندير ظهرنا.

- أيصيبك بالملل أن تتركني وحدي؟

ـ كثيراً.

ـ كن لطيفاً.

مطّ شفتيه، حكّ صدغه، حائراً أين ينظر.

قبل قليل قدّم لي أحدهم سيجارة في إحدى الحانات. قلت له إنني أحاول الإقلاع عن التدخين. لم

يلحّ وأعاد علبته إلى جيبه. صحيح أنني لم أدخّن منذ أسبوع لكنه تسبّب لي فجأة برغبة في إشعال سيجارة. عاد إلى طاولته وراح يراقب الجموع في الشارع. وبين وقت وآخر كان ينظر إلى حيث أجلس. أخذ يرمقني بابتسامة خفيفة عابرة، وتوقف الأمر هنا. وحين غادر، لم أشأ البقاء في الحانة، كأنّ جميع الزبائن أخلوا المكان. خرجت أنا أيضاً وفوجئت بنفسي في محل لبيع التبغ أبتاع السجائر.

- عبرت كلّ هذا الطريق كي تروي لي هذا؟

ـ هذا مضحك؟ أليس كذلك؟

ـ أكيد، ينبغي أن أتهيأ نفسياً لقصتك.

ـ لست مجبراً.

ـ وهل أنا مجبر على تحمّلك هذه الليلة؟

ـ متضايق لهذا.

ـ اذاً، لمَ تواصل ازعاجي.

هزّ رأسه، دمدم "حسناً..، حسناً.." وبخيبة اختفى في الغبش.

استدرتُ من جديد، اقتربت إلى حيث كان واقفاً، للتأكد من أنه غادر فعلاً. ارتحت واتجهت نحو غرفة الاستحمام أملأ المغطس ماءً ساخناً، وبدأت أخلع ملابسي.

ـ يلزمني حبتان منوّمتان قويتان كي أنام.

استنتجت مريم مديرة الفندق:

ـ تبدو في وضع غير مريح.

أرق.

ـ كيف تنجح في المعاناة نهاراً والسهر ليلاً؟

فتحت ذراعيّ دلالة على جهل الردّ.

استوت خلف الطاولة لتحضير فطوري. إنها جزائرية، وتعتبرني فرداً من عائلتها، ما يسمح لها بلومي حالما ترى أنني أهمل صحتي.

ـ وجب عليك استشارة طبيب أو تناول مقوّيات . أمّا استمرارك على هذا المنوال فسيسبب لك السقوط إغماءً.

وافقتُ لئلا أكدّرها.

أنا كئيب منذ أيام ومن دون أي سبب ذي أهمية. أحدس بأن بركة الأجداد تمدّ لسانها، وبأنني سأقطع قريباً الصلات التي تربطني بها كي أتقدّم، مع خطر الانحراف مع التيار.

التهمت قطعة الكرواسان مع فنجان الشاي، وخرجت إلى الأرصفة التي تبدو عليها آثار العاصفة والبرد الشديد يجتاح كل شيء. نفدتُ إلى معامل

القرميد حيث مجموعات شبحية تتحرّك ببطء، وسحنتها مخضرّة. على مسافة أبعد، ثمة باص عند أسفل نصب تذكاري لأحد الكهنة تترجّل منه مجموعة من المسنين ذوي أصوات متهدّجة. في السماء الداكنة شمس باهتة تتدفّأ بحرارتها. إنه يوم أجوف كحفرة، عديم القيمة كشيك بلا رصيد.

كنت أشعر أنّ يديّ دافئتان بخلاف عنقي في الوقت الذي رحت أتسكّع فيه داخل همومي.

بلغت، الشانزيليزيه من غير أن أفهم كيف ولمَ، وكان الوقت قد تخطى الظهر، و"شيه ليون" يعرض بلح البحر بسعر مقبول. جلست إلى الطاولة منتظراً.

دونت النادلة طلبي وهي تحكّ وجهها، قائلة:

ـ أنت كاتب، عرفتك. رأيتك في برنامج بيفو.

تناولت طعامي وأنا أرتجف برداً.

لدى مغادرتي المطعم البلجيكي، تنبّهت إلى أنني قد نسيت سجائري. لم أجرؤ على العودة لاسترجاعها في الوقت الذي كنت أعبر الجادة الأجمل على الكوكب حتى أقدام قوس النصر، لذلك لا يعقل أن أزرع كآبتي التي خلصتُ إلى إثارتها أمام ملحقتنا الصحافية في 24، جادة مارسو.

استفسرت ماري-لور:

ـ ما المشكلة؟

ـ أنا.

ـ أسرع في التخلّص من هذه الهيئة المأتمية. أنت منتظَر على بلاتو "ريف دروات، ريف غوش" خلال ساعتين.

ـ ثمة نذير شؤم يتربّص بي منذ حوالى أسبوع ولا سبيل إلى إبعاده.

حرّكت ماري-لور حاجبيها استياءً.

إنها تجدني "معقّداً" وعليها بذل جهد أقصى لكتم الأمر. لهذا، فقد استوت في مقعدها، أسندت ظهرها، تفحّصتني بصمت وقبلت الاصغاء اليّ.

ـ أثناء جولتي على المكتبات، رأيتُ كتابي على المناضد. عادةً، هذا منشّط، ومنعش. أما أنا فلم أشعر بهذا. بل إنني كنت متجهّماً، قانطاً. ثمّة ما يثير سخط طبيب نفسي هنا. أعرف، لكنني لا أستطيع شيئاً. لقد كنت أتنقّل بين صف وآخر مدمدماً في سرّي. وحين يمرّ شخص بكتابي من غير ملاحظته، كان كمن يدوس على قدميّ. هذا سخيف، أوافق، لكنه لا يعني شيئاً مهماً، للأسف! ثمّ، في الطريق، حين كنت أتفقّد الواجهات، لم أرَ معروضاتها. هناك شيء ما في رأسي كان يردّد لي أن روايتي ستفشل قريباً.

ـ أنت تمزح. ثمة طلب على كتابك. الأجدى أن نركّز الآن على مقابلة هذا المساء. تلقيت للتو اتصالاً من باتريس كارموز بأنك تثير حماسته. سيكون على البلاتو أيضاً جزائري آخر هو ي. ب.، إنه شخص رائع. وسترى أنّ الفريق لطيف والجوّ هادىء. صدّقني، لا مبرّر لتوترك.. ..

ثمّ تذكرت تفصيلاً وأردفت:

ـ إن كان لديك وقت فانّ السيد بارّو ينتظرك في مكتبه.

حدسي لايخونني. فالتشاؤم الذي يلازمني في حين أنّ لديّ جميع الأسباب الداعية إلى الفرح بما يحدث لي، اختار وجه ناشري كي يلقى تفسيراً.

إنّ برنار بارّو ليس ليّن العريكة. وفي الحال، خطر لي أن روايتي ستعود بخفّي حنين على الرغم من التغطية الاعلامية العالية الجودة لها. ومن غير معقول أن تُدرج في قائمة أفضل المبيعات.

بذلت أقصى الجهد كي أُبعد فكري عن وضعي الاداري الذي يرهقنا: فالبرلمان العالمي للكتّاب الذي ينبغي عليه شرعنته لم يقمْ بأي حركة منذ دفاعي عن الجيش الجزائري؛ فهل يتراجع لحظةً نحتاج اليه؟

لا ليس الأمر كذلك.

السبب الذي يصيب ناشري بالاضطراب، يقع على عاتق مكتبه. إنه الكتاب الذي ينشره فرنسوا جيز والذي بدأت أصداؤه تتردّد في أروقة التحرير، متهمة الجيش الجزائري بالوقوف خلف المجازر في حقّ المدنيين. كلها شائعات كنتُ نفيتها قبل بضعة أسابيع.

يبدو برنار بارّو منزعجاً من هذه القصة التي يراها نحساً على "الكاتب "، وربما على مسيرتي كروائي، لذلك، فإنه يدفع الكتاب موضوع النزاع في اتجاهي.

علّقتُ غاضباً بسبب حركته هذه:

ـ ماذا يعني هذا؟

ـ أرسله اليك بيار- أندريه بوتانغ وهو يودّ معرفة رأيك.

أحترم جدّاً السيد بوتانغ. إنه شخص مستقيم، محترف بلا مبالغة، لطيف مع حلفائه كما مع من يشكّ بصدقيتهم. لا علاقة لقامته بنظرته العالية، لكنّ ما يطلبه مني يفوق طاقتي.

ـ سبق أن حدّدتُ مواقفي في هذا الموضوع.

ـ عليك أن تقرأه. قد نحدّثك في الأمر.

ـ لا أحتاج عناء القراءة كي أفهم محتواه. فالحرب تلقيتها من كلّ الجهات، وبلا هوادة، على مدى ثمانية أعوام. أنا أكثر من يعرف ماذا يعني هذا.

برنار مرتبك. هو مَن كان تكبّد مرتين كلّ تبعات الذهاب إلى الجزائر للقائي. ـ جاهلاً تماماً أين تحطّ خطواته-، ها هو لا يدري بمن يحتمي. بل أسوأ من هذا: إنه مرتاب. أخذتُ الكتاب المذكور وعدتُ إلى ماري-لور أجترّ أمامها غضبي فيما بدت أقلّ ارتياحاً لحضوري.

قالت لي:

ـ برنار لا يشكّ فيك، سيد خضرا. إنما هو منزعج فقط. بالنسبة الينا، المعضلة بسيطة في هذا الوقت بالذات. فإذا لم تردّ على الاتهامات المسوقة ضدّ الجيش، فان الجهود المبذولة لاشتهارك قد تذهب سدى. كما أنّ ردّك قد يصوّرك المدافع المتحمّس عن مؤسسة يدينها الفرنسيون علناً. لذا لا نرى حلّاً للمشكلة التي نواجهها.

11

"موهبة باهرة في كشتبان"، لـ: ي. ب. إنه يجسّد هذه الشبيبة الجزائرية المولودة لكي تدهش وتأسر، والتي لا حيلة لها سوى القبضة كي تضرب والكلمة كي تثور. أحببت هذا الفتى وسأكنّ له المودّة دوماً. إنّ جرأته عجيبة تفوق حدّة ذهنه، بيد أنّ قريحته صعبة الترويض. وبغضّ النظر عن وضعه المشكوك فيه؛ فانه يمتلك شيئاً ثميناً هو الوقت. ومن غير الاغراق في الأبويّة، أبقى مقتنعاً بأنه مع تقدّم العمر، ومع حدّ أدنى من الاعتدال، فانّ كلّ شعرة بيضاء في رأسه ستعكس حضوراً عقلياً قوياً.

وفي انتظار الأحسن، يراقبني في "باري بروميير"، لامع العينين بأسئلة تشكلّ أفخاخاً، وقصاصات صحافية كثيرة داعمة لأسئلته. من ناحيتي، وافيته فارغ اليدين

لئلا أفوّت شيئاً من حواره. فأنا مسرور أن أضمّ اليّ صحافياً استثنائياً عشقت كتاباته في "الوطن".

نضحت المقابلة باختلاف في وجهات النظرلأنّ ي. ب. يتأرجح بين اعلان الحرب والترقّب. كان تردّده يحيرني، لذلك رفعت أسفل سترتي لأريه أنني أعزل من السلاح. ارتاح قليلاً، لكنه لم يفلت للحظة الصحف التي يحضنها. ومن أجل تلطيف الجوّ تحوّلنا إلى مناقشة أمور أدبنا، وبلدنا، ومذابحنا. ..

حان دورنا للصعود إلى بلاتو التصوير، عينان ضاحكتان وابتسامة برّاقة، إلّا أنّ صاحبها تييري أرديسون مرهق على الرغم من عدم تقبّله الأمر، لذلك، كان يجهد لإنهاء حلقته بكياسة. واضح أنه لم يقرأ كتابي، لكنه يبدو متأثراً بملفّ الصحافة عنه، لذا قام باعداد ريبورتاج قصيرعني. أما باتريس كارموز الذي قرأ نصّي فقد أضاء وجهه إعجاباً، واستقبلني بكثير من التقدير. غير أنّ ي. ب. مستعجل للانتقال إلى الأمور الجدّية، لهذا أفصح فوراً أنه جاء "يعلّق حافلته بقاطرتي الاعلامية"، ولا أرى في هذا سوءاً، ولن يتكلّم عن كتابه وإن أضرّ هذا بناشره؛ سيكتفي فقط بالتمحيص في حواراتي، مبيّناً ما يوحي أنه متناقضات. إيضاحاتي التي قدّمتها لم تثن عزيمته، بل بقيت تتزحلق

على سلاحه الهجومي كأغصان دقيقة ملساء. ولأجل ذلك، عاد إلى "الشواذات"، يثير أقوالي "القاسية"، وليكشف تصرفاتي "المشبوهة"، مديناً بوضوح احترامي لهؤلاء الجنود الذين كانوا إخوتي، أصدقاء طفولتي، عائلتي، رفاقي في السلاح، شهدائي، آمالي وحياتي. .. مناهض للروح العسكرية ـ في الواقع، ماذا تعني تحديداً هذه التسمية البليدة التي تتناولها بعض العقول النيّرة بوقاحة ثائرةً جهاراً ضدّ التعصّب والعنصرية ـ، يتهم الضابط، يرفض رؤية الروائي الذي يقاوم مثله، ربما أكثر بقليل، في سبيل بصيص نور وسط حصار الليالي. لم أعد أفهمه، وأيّ لعبة يلعب؟ ماذا يريد أن يبرهن؟ أليس هو مَن كتب قبل ثلاثة أعوام في لونوفيل أوبسرفاتور، أنّه مهما تكن الشائعات والحسابات التي تشوّه هويته، فانّ ياسمينا خضرا هو أولاً وقبل أيّ شيء "كاتب عظيم"؟ لماذا يتساءل الآن لاكتشافه جندياً خلف الشرطيّ؟ إنّ جميع جيوش الأرض قدّمت لأوطانها عُقاباً ونسوراً، هيملر ورومل جُدُداً. لِمَ يجب الاعتقاد أنه لا يمكن لجيش الجزائر أن يجهض سوى الغيلان والمنافقين؟

لن يتمكن ي. ب. من تعليق حافلته قطّ بقاطرتي، لأننا لا نستقلّ القطار نفسه.

صفق تييري أرديسو بيديه؛ انتهت المقابلة. حملنا أغراضنا وعدنا إلى المنزل.

اعترف لي ي. ب. في الرواق منزعجاً:

ـ أنت "زرعتني".

حسناً، يداي خضراء.

في الخارج، أفاد النهار من الأنوار التي تبهرني كي يطْلَع بسرعةٍ والتي لم تدعْ للّيل أن يفكّ رسائله. إنه يرضى تحمّل وزر هذا الاهمال لتلافي الاشكالات ويستدعي الغبَش إيهاماً بأنّ المساء قد حلّ، والمتسكّع، الساخر منه بأبّهة، يتظاهر الدخول في اللعبة كي لا يتأخّر.

بعدها، صعد ي. ب. إلى سيارة التاكسي وذهب.

بقيت في الشارع حائراً، ثمّ استقليت سيارة تاكسي تكظم فراملها أمام الباب؛ متجاهلاً الأمر، وفي رأسي تطنطن أصوات مرتجفة صعبة الفهم. حاولت عدم التفكير بأي شيء لكنني انتبهت إلى عدم استطاعتي ذلك.

فجأة ظهر شبح من جدار؛ نفثات دخان في البداية تجمّعت رويداً رويداً حول ظلّ إلى أن اتخذ شكله.

إنه رجل، وأكثر تحديداً محكوم بالأشغال الشاقة ومن الجيل القديم. شاحب الوجه ومتّقد العينين، له

قامة شخص احتكّ طويلاً بالقضايا الخاسرة حتى أنه يعجز عن الفكاك منها من دون تشتّت. ملامحه غير واضحة، لكنّ ندوبه ظاهرة.

اندفع نحوي من وراء القبر شبيهاً بانطباع أخرق يعبر إلى داخلك. لذلك بصقتُ تحت قميصي لطرد السحر، ضحك مني وقال لي بصوت أصحل:

ـ تمهّل.

فضّلتُ البقاء حذراً وجاهزاً للعودة إلى الوراء. لقد كان ذعري يسلّيه، لذلك فتح ذراعيه لاظهار حسن نيّاته.

ـ آسف لاخافتك لكن لا مجال للتصرف بطريقة أخرى. لم أعذ أنتمي إلى هذا العالم، ولا يمكنني بعد أن أطرق باباً قبل الدخول. ليس هذا لأنني غير مهذّب، بل أنا شبح. أسند يده إلى الحائط وانتقل سريعاً إلى الجهة الأخرى.

رأى خرقةً تنفصل عن صدره، تتماوج حول وجهه قبل أن تطير بسرعة؛ لكن عبثاً حاول التقاطها.

قال:

ـ أواصل من سمائي مراقبة ما يُدَبّر هنا وهو ليس مدعاةً للسعادة. إنّ البشر يعقّدون حياتهم، والأمر لا يستحقّ حتى محاولة إنقاذ المقتنيات، إذ لطالما رفضتُ

في حياتي أن أكتف يديّ وأترك الأمور على غاربها. أمضيتُ أجمل أعوام عمري أتعذّب في السجون. بمَ انتفعتُ؟... اعتقدتُ بأنني سأتعقّل وأعود مواطناً عادياً. أخطأتُ التقدير. أنا عاجز عن سماع أحد يشتكي من غير أن أكون إلى جانبه متضامناً معه، لهذا تركتُ زاويتي الصغيرة في الجنة كي أتقاسم معك لحظة من لحظات كدَرك. أظنّ أنني أعرف ما يضايقك، أعرف هذا النوع من العجز، وأنّ الخسائر التي يسبّبها هي أحادية الاتجاه، ونحن نسقط إن لم نعالجه فوراً. إذاً، لنبدأ سريعاً: ينبغي ألّا تحقد عليهم يا خضرا. إنّ ردّ فعل الناس منطقي إزاءك، ونادراً جداً ما نصادف صدقاً خاماً. ما تجرّأتَ على الإقدام عليه غير مألوف، ويجعل منك بشكل أوتوماتيكي إمّا أسوأ الأوغاد أو رجلاً محترماً. بالنسبة اليّ، أمتنع عن الشك لحظة واحدة بأنّه يمكن لايمانٍ بهذه القوّة أن يبيع نفسه.

ـ ما الذي يمنحك هذه الثقة بنفسك يا غيمةً من دخان؟

لاحت ابتسامة خفيفة على وجهه.

ـ أنا ناظم حكمت. أعرف السجون والقلب البشري أكثر من نفسي.

ـ أتعتقد أن هذا يكفي كي أسعد؟

ـ المهمّ أن يعطي الانسان معنى لشهيده. لا تنسَ أنك كاتب.

ـ وما هو الكاتب تحديداً؟

ـ رفع ذقنه بحزن.

ـ أدرك بأن قصائدي عديمة التأثير اليوم قياساً بتاريخٍ ممالق، وبأنّ الكتاب يفتح على الفضيحة بملاطفة عاهرة تستقبل زبونها الأول، وبأن لا فواتير غير مدفوعة أكثر من الاستعارات في المخطوطات. .. هل هذا سبب لقلْب المحبرة؟ أكيد، كلا.

وهنا يجب أن تتدخّل، كاتباً. هنا حيث كلّ شيء يحمل على الاعتقاد أنّ الخسارة قد حلّت، وأنّ الكاتب هو للبشرية حظّها الثاني. وحين يكون ثمّة تهديد بأن يصير الانحلال عميماً، تُقسّي الكلمة نبرتها وتذكّر القطيع بالنظام، وفي أيامنا، تلامس الأمور السخرية، لكنّ التجارب تصنع الآلهة دون سواها.

ـ لستُ إلهاً.

ـ أنت إله شخوصك.

ـ لقد تدبّروا شأنهم من دوني. والبرهان أنني أبلبلهم حين عودتي اليهم الآن.

ـ لا تخفْ. ليس هذا سوى معركة تضاف إلى مسيرتك. مشكلتك أنك أخطأت التوقيت. كان جيونو

ليدعمك، وربما كامو أيضاً. المشكلة الثانية أنهما لا يُطالان وعليك أن تقاوم وحدك كعظيم.

ـ حقاً كان جيونو ليدعمني؟

ـ وكيف! إنما ينبغي عدم الصياح بهذا على السطوح. في باريس، لا يحسن بالمرء أن يدرك نزعاته، لأنّ التكريس أمسى يرفع من سطوة مانحه ويضع من يتلقاه في موقع المديون الأبدي.. ثمّ إنّ هذه ليست صدقة لكنها تشبهها حتى الالتباس.

ـ وماذا يجدر بي أن أفعل؟

ـ أكتب. لا تهدر وقتك في تبرير ما لا يبرَّر. في بلد النزاعات ثمة أدب أيضاً، وسط حُفر الحسد وأسلاك النفي الشائكة، هنا تماماً حيث تنعدم براهين النزاهة الفكرية، توجد منطقة عازلة لا يمكن لأيّ دناءة أن تدوسها. أما الملاذ الأمين المنزّه فهو حيث يرفع الكتّاب الأصيلون صروحهم متفردين. وهذا الملاذ هو: الضمير.

سائق التاكسي كاد يفقد صبره.

أحيّي الشاعر التركي وأسرع.

ـ ياسمينا خضرا. ..

استدرتُ.

ناظم حكمت ابتسم لي. هذه المرة، أوحت ابتسامته شمعة تضيء دار الميت.

قال لي:

ـ إنني أعطي أجمل قصائدي مقابل يوم واحد من حياتك.

ـ أما أنا فأعطي عمري كلّه من أجل لحظة راحة.

غمزني، رفع قبضته في دعوة لي إلى مزيد من الصلابة وراح يختفي في دخانه.

12

القطار السريع في أقصى سرعته لايصالي في أقصر وقت ممكن إلى أولادي. كان ينهب الطريق عبر القرى بينما الرذاذ يحاول تلطيف الأجواء والهواء يلعب بتشكيل خطوط مائية على الزجاج. لكن هذا المشهد لا يلهيني عن كآبتي التي تقبض عليَّ وتحتكرني.

فرنسا بلد جميل.

فهل تدرك سحرها؟

هي لا تعي حتى حظوظها؛ وإلّا لكانت انتبهت إلى النحس الملازم للبلدان الأخرى.

أخذت عيناي تتحول باتجاه التموّجات المخضوضرة المتمايلة في حركة جماعية لبديّة، مدغدغةً الأفق في أصابع رجليه؛ هناك حيث تعتني مزرعة ببقراتها الخمس التي تبدو كأنها تطلع من أغنية لبراسنس، وكلب ذو فرو خردلي اللون يركض كعاشق

مراهق في محاذاة سياج. إنها ضيعة صغيرة تغيب لتظهر مجدّداً الحقول التي تستردّ كل شبر من الأرض لتخفيه في حضن الغيضات الخضر اء المزرقّة، في منأى عن الباطون.

ومع ذلك، بقيت سجين همومي بدلاً من التمتع بالجمالات هنا وهناك. أمدّ يدي نحو الستائر الساحرة لألقى بشاعات بلدي الجائرة على حالها، فأرى من جديد بهاء فيلّاوسين عبر الهدوء الذي يعكّره طنين الهيليكوبتر، في الطراوات المحكومة برهط من الممسوسين القذرين، أصحاب اللحى الطويلة حتى العانة والذين يراقبون، بين هدنتين، المجازر المقبلة؛ أرى مجدّداً بلاد بني عاد العَدَنية حيث تلامس المتفجّرات الفطر، والأماكن المسماة ملعونة والمتروكة للوحوش والخنازير البرّية حيث تولد لدى القطط المهملة ردات فعل الضبع؛ أتذكّر الدم المجمّد حبيبات في صحن الدار، وعويل الأرامل الطويل، بالإضافة إلى الأثاث الوضيع المتساقط على أجساد الأطفال، والكلب الحرون الرافض العودة إلى حيث تورّط رجال في أفظع الوحشيات... هنا ترتبط الأهوال بعضها ببعض: حمّام مانتيلا، تافيسور-الفخّ، تيباري-الكريهة، روليزان-الأبوكاليبتية، سفيسيف- المعلّمات الاثنتا

عشرة، الطرقات حيث يُبرز كلّ منعطف مآسيه لاثبات حقّه في المواطنة، القرويون البائسون، هذا الوالد الذي يقودني نحو كابوسه، الجنود العائدون من عمليات الدهم، النظرة الأكثر حيوية من جرح. .. الجزائر! يا هبةً إلى الآلهة الجحودين، مرصودة للكواسر والبوميّات، التي أنكرها زعماؤها وشعراؤها، رعيّتها والغورو فيها، ضحاياها وجلّادوها، المكرهة على الترمّل بعد كثير من المعاشرات غير الشرعية المحرّمة... الجزائر، يا كوكبة هائلة من النجوم في سماء اليوتوبيات، من دون أمم شقيقة ولا حتى بلدان أصدقاء، أيتها الوحيدة لكن الباسلة حتى الفظاظة... التي بكت موتاها كثيراً حتى جفّت المياه من سواقيها.

قبالتي يجلس رجل ضخم منشغل تماماً بصحفه التي لم يرفع نظره عنها منذ جلوسه. إنني أعتبر لامبالاته نوعاً من الإبعاد؛ مع أنني لا أكرهه لكنني، في المقابل، لا أتحمله.

الى يميني، جندي في لباس مدنيّ لكنه يُعرف من أعلى رقبته الحليقة ومن تذمّره، وهو يشعل سيجارة بحركة عنيفة. أما هاتفه المحمول فلا ينفكّ يرنّ، وهو لا يردّ. إنه يقدّر بوضوح الازعاج الذي يسبّبه ويستلهمه لمضايقة الناس حوله.

حاولت القراءة لكنني عجزت عن التركيز.

أخذت أتفحّص نهاري الباريسي ومختلف اللقاءات التي سيّرته، وأجهد للاحتفاظ بالايجابية. لا شيء أقوم به حيث القدرة على الاضرار بقطرة السيانور أكثر فعالية من حضنٍ من النباتات العلاجية الطبية.

إثر ثلاث ساعات من السفر، انتبهت إلى أنني لم آكلْ شيئاً منذ المساء الفائت. استأذنتُ الجنديّ واتجهتُ نحو حافلة البار. خلف الكونتوار صبية بشوشة ونشيطة، فطلبت سندويشاً بالجبنة وكوباً من عصير البرتقال وجلست في إحدى الزوايا، فشاهدت رجلاً يحشر نفسه في بزّة نجم يتوقف عن الأكل في إشارة إليّ كونه تفاجأ كثيراً بالالتقاء بي وجهاً لوجه، لذلك أثارت دهشته تساؤلي، وحاولت أن أتذكّره، لكن وجهه البارز العظام، الفاسق للغاية، لم يقلْ لي أيّ شيء.

لكن بعد أن مسح فمه وأصابعه بمحرمة ورقية محرّكاً كتفيه مع ابتسامة صامتة، ثمّ مع تخلّصه من أثر المفاجأة، أطلق حمحمة فجّة:

ـ لا تدعني أصدّق أنك لم تعرفني، إلّا إذا كانت الشهرة ملأت رأسك.

ـ لا أعرف من أنت يا سيد.

ـ يا سيد؟ أنت؟ يا للّياقة!

يطبق شفتيه، يرفع أحد حاجبيه قدر المستطاع.

ـ أحقاً لم تعرفني؟ ألا ترى؟

ـ آسف. مع من أتشرّف بالكلام؟

ـ كفى لياقة، ها أنت تتحدّث كالناس الشديدي التهذيب.

يبرز ملامحه تباعاً عبر حركات مخيفة بهدف تحريك ذاكرتي.

ـ لا أعرف من أنت يا سيد.

ضرب على الكونتوار وصرخ بقوة:

ـ بم تحلم الذئاب؟ تبّاً! مدن الصفائح في الهرّاش. .. الشخصية المقرفة بالبنطال المرتوق، الذي يروي كيف أن ذلك الشَّره عمر زيري، غاط في ثيابه حين دقّت ساعته.

ـ صلاح "هندوشين"؟

ـ نعم، صلاح " هندوشين"، بشحمه ولحمه.. هيا، قلْ إذاً، إن لم يعد يعرف كاتب شخوصه البتّة فأين يذهب الأدب؟[1]

---

(1) في كتابي بِمَ يحلم الذئاب، وهي رواية أبيِّنُ فيها السقوط إلى الجحيم، لشاب جزائري مكبوت استمالته الحركة الأصولية، هو صلاح الهندوشين (نسبة إلى الهند الصينية)؛ إنه مقاتل قديم في الهند الصينية وفي حرب الجزائر، لقد أبدى صلاح هذا، بعد أن جندته الجماعات الأصولية المسلّحة لكسب المجنّدين،

ـ ماذا تفعل في باريس؟

كما يفعل الجميع: أجيء لأشهد.

ـ تشهد؟

ـ كفى حماقات، ياسمينا. العون في متناولي ولا أريد إزعاج نفسي. طلبتُ كمية كبيرة من الفياغرا واحتكرتُ نصف مواخير باريس.

صـ يعني؟. ..

أغضبه جهلي.

نظر اليّ دقيقة ثم انحنى عليّ.

ـ البلد ينفجر بالرصاص، أتفهم؟ هذه المذابح الغزيرة التي تطالب بـ "تاي-بريك" (الشوط الفاصل) بدأت تتلمّس روائح الحريق. الوضع يتدهور يوماً بعد يوم، والضمائر الباريسية ثائرة لهذا. ثمّة مؤسسات انسانية قرّرت المواجهة. وبما أنه يمكن التحرّك مهما بدا الوقت متأخراً، كنت مستعداً. الحقيقة، لم أكن مرتاحاً في البلدة (الـ دوار)، وعلى الرغم من موجات النادمين، كانت المغفرة تُحرِج. كان ثمة شيء مفسد في

= قساوة عمياء، وقام بقتل أعداد كبيرة من الأبرياء، بدم بارد. مع زان، إنه أحد أبشع الشخصيات التي ابتدعتها.

الجوّ. لم أكن أستطيع الخروج إلى الشارع من غير مصادفة شبح. الناجون من الموت يرافقونه، والمقاصد جلية. لم يكن الوفاق الأهلي سوى فخّ حيث كان الانتقام يسنّ شفراته. الوضع سيء، ولم أعرف كيف عليَّ أن أتحرك. اخترتُ الاختباء، قفزتُ إلى قعر أول باخرة، ومرحباً للمنفى المسيحي.. لم يكن هذا مريحاً، قالها بتأثّر مفاجىء. شحذتُ الطعام في المترو، نمتُ تحت الجسور؛ حتى أنني استعطيتُ المارّة. يا للخجل! كنتُ أخفض رأسي أمام قطط المزراب. كنت أروي على شكل ترانيم، الفظاعات التي عشتها في الأدغال. أشخاص قدّموا إليّ سجائر على سبيل الشفقة قبل أن يضعوا الميكروفونات أمامي. دخلت سريعاً مكاتب التحرير لأنّ قصصي أوقفت شعر الرؤوس والأبدان، وكانت لدى ي. منها ما يصيب بالاغماء، أقسم لك. لم أكد أعطس حتى جهز الكتاب، فبدا كسابقة لا مثيل لها. أنا نفسي ما عرفتُ أنني عشت هذا كلّه. من هنا أرى إحدى الشائعات: "أمير الجزائر الكبرى السبعيني يُفرغ كيسه التفجيري!"... لم تكن هناك من حاجة لترك بصماتي على ملامس الدكْتيلو المزوّد بإحدى الشاشات، لأنّ مجموعة تحقيق حضرت مع وثائق

بحكمي إعدام حرقاً، لقطف شهاداتي. لقد بحثُ بكلّ شيء، بدقة جرّاح:عشرات عمليات القتل، الحواجز المصطنعة، عمليات الخطف، عمليات الاغتصاب، المسلسل الكامل لضحاياي، شروط استغلالهم، تاريخ وساعة سقوط كلّ منهم، الاحداثيات الدقيقة الخاصة بالمقابر حيث يرقدون. .. ولا نقطة وقوف! وبما أنني انخرطت في مجموعة المفوّضين، وكنت معروفاً من الكبار والصغار، حالما ستُرى صورتي في الصحف سيصرخ آلاف الناجين بأعجوبة: "إنه هو، الحيوان المنبثق من التاريخ السحيق!".

لفتّ نظره إلى التالي:

ـ فرنسا بلدُ قانون. سيتم توقيفك وتُحكَم بجرائم ضدّ الانسانية.

ـ كلا، فقد أشرتُ، في النص، إلى أنني أعمل لمصلحة الأمن العسكري.

شطرني هذا نصفين.

صلاح هندوشين يقهقه فخوراً ببدعته وواقعاً تحت سحرها.

صاح محركاً فمه كأرنب:

ـ أنا أسدّ لك زاوية، أليس هذا صحيحاً؟

ـ أنت تهذي أيها العجوز. أنت من شخوصي. سأقول إنك تكذب.

ـ على من؟ من سيعيرك أهمية؟ من يثبت أنك لستَ كاتباً حقيراً أجيراً لدى الجنرالات؟

إزاء رعبي، صوّب سبابته نحوي وأطلق "بمّ!".

أضاف جامحاً:

ـ سيسير الأمر كما على الـ "روليت". يكفيني فقط أن ألبس القبعة للجيش حتى أسامَح أوتوماتيكياً على جرائمي. والأحسن، يحقّ لي أن أكون لاجئاً سياسياً وأحظى بحراسة مخصصة للنواب، وأحيا ما تبقى من أيامي بدخلٍ محترم. مثقفون مشهورون ـ كان لهم حظ الافلات من سيفي-سيدعمونني بقوة. الميكروفونات ستذوب من حماوة الأضواء المسلّطة كلّ مرة أتكرّم بالظهور فيها على بلاتو أحد التلفزيونات. .. هل تفهم؟ وأنا مَن ثقافته متواضعة جداً؟ مَن يعجز عن تعبئة بطاقة بريدية بلا أخطاء؟ سأنهب فجأة النجومية من بعض الكتّاب الكبار، عظماء أقطاب اللغة الفرنسية، ومن أرباب الأدب العالمي- وفق تعبير مارتين غوزلان-... يا للبؤس!لو أدركت في العشرين من عمري أن كوني أميّاً لا يمنع أن أصير "بست-

سللر*، لاخترت علم الأدب منذ أن كنت موزّع بريد عسكرياً في دين بين فو. ..

ـ أفترض أنك فخور بنفسك.

ليس لديّ ما ألمّعه في ما خصّ الافتخار. هذا مجرّد مكوّن لأبله مفتقر إلى السخرية. لا تنظر اليّ هكذا. أنت هو المخلوق الفضائي، الذي لم يفقه شيئاً. العالم غيّر مظهره، ولكي يكون المرء ملكاً مثل داغوبير، يجب أن يلبس سرواله على قفاه. المثاليات انعدمت، ليس ثمة سوى المغفّلين يتسلّون بشعارات أكثر تجويفاً من بطون الجائعين. ومن اليوم فصاعداً، ليس الوطن سوى بطاقة زرقاء وقيمة بيان الهوية المصرفي لأنّ أهميتك تتحدّد وفقاً لرصيدك. فإنْ كان معك مال، أنت قادر؛ وإن كنت مفلساً فلا حول لك ولا قوة. عبارة "الكشف" باتت تعني اليوم، البيانات؛ بيان المبيعات، كشف الحساب المصرفي. ثمة فقط قانون واحد وحيد، قانون السوق الذي على الجميع أخذه في الاعتبار. الـ"بزنس هو بزنس". هذا ما يسمّونه التحلي بالطيّبات. يا مرضى السكّري تقشّفوا.

III

الشك

13

زوجتي تنهار

المنفى ثقيل جداً عليها. ليس ثمّة برج بيز يفرحها كما صحن الدار في سيدي بلال، ولا يرضيها شيء سوى الضجيج الملتهب في الحمري .

فإذا كانت أهرام تيوتيهواكان قد فشلت في إخفاء سانتا كروز فيها، فليست برودة فرنسا ما سيعوّض لها فنتازيا وهران.

بدأت الأمور تتفكّك.

وبعد رعب الغربة، حان دور هواجس الشك.

ومنذ صدور الكتاب المثير للنزاع، عن دار "لا ديكوفيرت" (الاكتشاف)، أشعر وكأنني متروك، كأنني مدفوع من علوّ غيمتي.

ومن عشرات المقابلات التي أجريت معي حول

الجدل الناشب، وحدهما "ماريان" و"فرانس سوار" نشرتا بعضاً منها؛ أما الباقون ففضلوا التغاضي عنها لأنهم احتاروا من أين يباشرون بما قلته بدورها.

من جهتها المقالات التي كانت صحف ومجلات عديدة وعدت بتخصيصها لروايتي التي هي سيرتي الذاتية، لم تنشر بدورها.

هاتفي في صمت جنائزي.

وبين ليلة وضحاها، حلّ الحرد مكان الحماسة.

ونظراً لأن أفراحي كانت دوماً الأكثر توطؤاً مع عذاباتي، ها هي وحدتي تفرك يديها، إذ ثمة ما تهتم به الآن.

أحاول الاحتفاظ، قدر الإمكان، بأعصاب باردة، أما زوجتي فكانت مذعورة.

ـ قلت لك إنه كان ينبغي البقاء في بلدنا.

ـ لم أستطع.

ـ كان في استطاعتك.. وجب عليك المجيء للاستطلاع وتفحّص الامكانات المتاحة قبل الانجرار إلى هذه الدرب الوعرة.

أجهد لتهدئتها لكنني لا أفعل سوى مضاعفة اضطرابها، لأنها ترفض الاستماع إلّا إلى الدم النابض في صدغيها. كانت أنذرتني قبل أعوام، مردّدة أمامي

بلا توقف: "الناس ليسوا أنت، ولا ما تظنّ أنهم عليه". "قد أتبعك حتى أقاصي الأرض، شرط ألا يكون ثمة احد سواك. أثق بك. أعرف من أنت. لكنني أجهل أصدقاءك". ضحكت كثيراً من مخاوفها. كانت ضحكاتي تطمئنها لكنها لم تعرف أن ترفع عينيها نحوي من غير أن تلين. لم أحبطها مرة، ولم تتردّد قطّ كلّما طلبت منها أن تلحق بي. يوم فهمت أنني مصرّ تماماً على نشر "موريتوري"، حدّقت في عينيّ دقيقة، ربما أقلّ، ثم انسحبت. ذهبت لموافاتها إلى الصالون حيث هدأت يدها الشاحبة والعصبية حالما أخذتها بين يديّ. لن تتراجع أبداً، ستمضي بعيداً مثلي، جريئة كما يحدث نادراً.

هي اليوم غاضبة، ولن تسامحني لأنني أفسحت في المجال لأشخاص سيئين عملوا على إسقاطي، مع ذلك، أنا، محطّ فخرها.

ليس أطفالنا مجرّد بقجات. ثلاث مدارس، ثلاث لغات، ثلاث قارات خلال أقلّ من سنة مدرسية، فإلى أين تأخذنا؟ حلفاؤك يديرون لك الظهر. ..

ـ يحتاجون وقتاً.

ـ والآخرون؟

ـ لا يدرون من يصدّقون.

ـ يصدّقونه، هو. إنه على جميع الشاشات. وأنت، لـمَ لا تكون دوماً في نشرة الثامنة المسائية على فرانس2؟ الروبورتاج أنجز منذ أسابيع.

ـ الميديا تعمل على هذا النحو. فوراً. سيهدأون. سترين، سيسير الأمر.

ـ إذاً، كفّ عن المجازفة بحلمك بسبب مواقفك الانتحارية. لا تتكلّم قطّ عن الجيش.

رفعت اصبعي مهدّداً.

ـ أنا أدافع عن شرف أهلي.

ـ لم يطلبوا منك شيئاً من هذا القبيل.

ـ ليسوا بحاجة إلى مثل هذا الطلب.

صفقتُ الباب وخرجتُ لأغيب في ضوضاء المدينة.

كانت إيكس في ذلك اليوم مستغرقة في أهوائها الصغيرة، كمدينة بورجوازية وسكوتة، تستعرض واجهاتها. أما ظهرها الذي تديره لي فهو نفسه واجهة، يعيد اليّ انعكاس ظلّ.

سأعيش على هذا النحو أربعين يوماً.

حضانة مرعبة.

عنيف وعابث كفيضان تاسّيلي.

أغرق في هذياني، أشعر برغبة في إحراق كتبي، جميعها بلا استثناء، كما مخطوطاتي ماضياً إثر الرفض الثالث لها.

هُمّشتُ ستة وثلاثين عاماً في جيش ناهض دعوتي روائياً، وها أنّ أولمبي المنير ينكرني لأنني ضابط. أسامح الأوّل على تصرّفه، وأقبل أقلّ سلوك الثاني. التناقض سيطر على لياليّ، ألم يكن عليّ القبول بقدري؟ هل يا ترى جئت ربما إلى هذا العالم لأطيع ـ ليس إلّا لأطيع؛ لأتبع آثار المسارات التي توكل اليّ، وألمّع حذائي حتى "أرى صورتي"، أصفق كعبي كلّما تنحنح مسؤول أعلى، أكتفي بالفرح بنجوم الترقية، لا أرقص إلّا على إيقاع مضبوط، لا أتزوّج سوى وحدتي، لا استيهامات تساورني الّا على العدوّ، أعبد سلاحي كتذكار نصر، أبحث عن النشوة في نار العمل، لا أعترف بأمجاد غير أمجاد ساحات الشرف، وبخلاص غير خلاص الخنادق. ..

أربعون يوماً كرهت فيها نفسي لأنني صدّقتُ البشر حتى أنني لم أترك شيئاً لذاتي.

14

العودة إلى باريس.

إنه الليل.

السماء المزيّنة بغيومها تبدو غير قادرة عن الخروج منها. هكذا تبرّر عدم جهوزيتها، واستحالة العثور على نجمة تخصب ليالي أرقي.

أمشي على ضفاف السين، فأرى بعض السفن تجترّ سوء حظّها، معلّقة بالأرصفة كحيوانات داكنة. أسمع متسكّعاً يدمدم مصاباً بالحكّة، فيما ينصحه آخر برمي نفسه في الماء. تبع ذلك شجار، نخير، ثمّ سكوت.

تردّدت من أعلى الجسر؛ يمنةً ويسرةً، وماذا يغيّر هذا في الاخفاق؟

أنا منهك.

لا أفهم لماذا أشعر بألم، ولا أستطيع تحديد نقطة الضعف. أهذا هو المنفى؟ أم أن ثمة أمراً آخر؟ في

المدرسة، في المدرسة الحربية، ألم أكن المخالف، الكائن المنفصل؟ إذا كنت لم أنجح في التعوّد عليه فكيف أتخلّص منه؟ في مكان ما، سأبقى ذلك الرجل الذي لن يفلح في الهروب من أمر من غير إقامة سحابة كي تحوم حوله كأسراب من الوطاويط المذعورة. أشعر وكأنني أتراخى كي أتعلّق بوهمها، كغريق في الصحراء يتنازل عن واحة رائعة تقتل السراب بمائها. أبدو غير غاضبٍ، اكنني تعب، تعب من وجوب القناع أيضاً وأيضاً، وإثبات الحب الذي أكنّه للبشر، لأناس يتحفظون إزاءه، وإرغام أولئك الذين تسوّل لهم أنفسهم أن يضمنوا أنني أركب موجة الأخطار العديمة الجدوى كالأخطار التي وضعتني في عالم الكتابة.

ماذا يحصل لي؟

لمَ أنا مجبر على جرّ نصوصي خارج كتبي، على التملّق عندما يكون الوضع سوداوياً؟

لمحت ظلّ شخص قاطعني:

ـ هل تحمل بعضاً من السجائر؟

أعطيته سيجارة. انتزعها من أصابعي، شقّ لها ثغرة في لحيته الكثيفة ليضعها على طرف فمه متظاهراً بالبحث عن ولّاعة. عرضت عليه قدّاحتي، انحنى فوقها متراجعاً. أضاءت الشعلة عليه؛ إنّه زرادشت.

عيناه كانتا تلمعان وسط شعره الغزير الأصهب.

تحرّك ببطء على عرشه المؤقت، استوى بمحاذاة الجدار الصغير وخلع رأسه إلى الخلف نافخاً دخانه في وجهي.

سألني:

ـ ألم نرَ بعضنا قبل الان؟

ـ ربما.

ـ حسناً، أتذكّر. أنت مَن منعني من الاجهاز على ذلك الفاشل فريدي.

أزاح بذراعه كومة نفايات منظّفاً المكان حوله.

ـ الصبي الذي يريد أن يصير كاتباً، صحّ؟

ـ نعم.

ـ لا يتكلّمون إلّا عنك هذه الأيام. حتى أنّ اعتقاداً ساد أنك أنت قطّاعة الزبدة.

ـ عفواً؟

ـ أنت ترفع طوفاناً من ساقية، كأنه حدث القرن. في رأيي، أنت تبالغ. كتبتَ، نشرتَ، بعتَ، لا أرى ما يثير الهذيان. البلهاء من صنفك يكبرون بين الأسوار. ما هي مشكلتك بالضبط؟ لا يصغون اليك كفاية، لا يتم الاعتراف بموهبتك كفاية؟ ألأن الكتابة لم تكن أمراً سهلاً بالنسبة إليك، تعتقد أنك تستحقّ تقديراً أكثر من

الآخرين؟ ثمّة سقطة وعهر. نحن نصنع كتاباً فنظنّ أننا جديرون بسداد دين.

ـ ليس إلى هذا الحدّ. أعرف حدودي.

ـ وأين تنتهي حدودك؟ منذ مجيئك إلى فرنسا وأنت لا تنفكّ تزعزعها بشهادتك. لكن من أين تأتي أنت يا رجل؟ أنت في الألفية الثالثة. التشرّد الحقيقي انتهى. سارتر، دانتي، مالرو، غوته، زمن طويل مضى لم نعد نتذكّر معه أيّاً من ماركات سياراته الرديئة. "اقطع ذيلك" وحاول ألاّ تضع رجليك في حبيكتك. المعشوقون يلبسون أزياء مبتذلة ويتجشأون كخنازير على بلاتوات التلفزيون. لم تعد الموضة نحو الصواب، بل أقلّه نحو الادّعاء. ولكي يكون المرء معشوقاً، ثمّة صيغة تافهة: أن يكون محظوظاً مقدّساً، صاحب تفكير تقريبيّ، أو فظّ، وذا فم مشغول جيّداً للانقاذ من ورطة. ويجب خاصةً عدم ذكر الموهبة. سيكون هذا تعدّياً على تلك الألوهيات الحديثة التي استثمرت آلهة الأولمب مبيّنةً، كلّ يوم، أنّ الاله الطيب يخرّب، أنّ العبقرية بدّلت أمكنتها، وأنها صارت في الجيب ولم تعد في الرأس.

ـ كلٌّ يفكر كما يريد.

يقفز قفزة فيرتطم رأسه بالحائط الصغير، ويوجّه اليّ نظرة جنون.

ـ ترى أنّ العالم يقدر بعد أن يمسك نفسه.

ـ وأنت لا؟

ـ هل لأنك تعتقد أنّ الانحراف لا يتسبّب بالدوار أكثر مما يتسبّب به الاعلاء؟ يا لعهر هذا الفكر الأحادي، هذه اللغة الخشبية! ينبغي أن يكون الانسان مغفّلاً ومحكوماً حتى لا يتنحّى. إرجع إلى حفرتك، كاسبار هوسر. الزمن تبدّل، واليوم لا مَن يبالي بالكتاب، ولا مَن يحتجّ على التدنيس؛ موزار يُسحَق أمام التكنولوجيا ورامبراندت يخلط ريشاته بعضها ببعض أمام هؤلاء الرسّامين الحديثين، الذين يسكبون سهواً ألوان محتويات سطولهم على قماش اللوحات فيبلغون النيرفانا. رمى السيجارة فراحت تتمايل فوق الجسر، نهض، نفض ثيابه محدثاً جلبة، وضع يديه على خاصرتيه وطقطق فقرات رقبته. نَفَسه المقزّز كان يحيط بي. فجأةً، أمسكني من عنقي ودفعني.

ـ تريد أن تحطّم الكوخ أيها الكاتب الفاشل. لا أسهل من هذا. تعالَ، سأريك.

عبرنا الطريق حتى الشارة الحمراء، ومشينا في شارع غارق في العتمة. أصابع زرادشت تسحقني. إنه قوي حتى أنّ رجليّ لا تدوسان إلّا الهواء.

وأمام أحد المنازل، ألصق وجهي بقوّة بإحدى النوافذ:

ـ اسمع هذا الصراخ أيها الرجل؛ إنه لفتاة يغتصبها والدها. إنه "بست-سللر" مستقبليّ. .. تعالَ، تعالَ، لم ترَ شيئاً بعد. هذا القطيع من المستكتبين الذين ينتظرون برويّة على أرصفة المقاهي، يصيح مشيراً إلى كتّاب شعبيين غافين خلف الآلات الكاتبة، يسمّونهم "الزنوج". جميعهم ينتظرون أن يأتي نجم من الشوـ بيز ويروي لهم عن طيشه وحماقاته. النجاح هنا مكفول... والأمر لم يعد يتعلّق بالعبقرية، إنها الشهرة التي تبيع. تغريك المسألة، انطلق. مواضيع للمفاضلة: ارتكاب المحرّمات، قتل الوالدين، مدح الكراهية، إفشاء خديعة، بورنوغرافيا. .. لا وصفات أخرى، يا صبيّ. وليست الحلول ستة وثلاثين. إذاً، بحقّ السماء، لا تزعجنا بأفلاطونيتك الأدبية. هذا مضحك، تافه، ومحزن حتى الموت. تريد أت تبدو مهمّاً، أبرز ردفيك؛ تريد أن تثير الاهتمام، فرّجهما. لقد صار العالم عديم التفكير؛ وكل ما يفعله أنه يعكس، يرى نفسه في كلّ مكان حيث النظرة تهلوس. ومتحوّلاً معرضاً تهتّكياً شاسعاً، ها هو يتفاخر، يتململ على

سرّته، يخرّ تحت المداعبات المضطرمة ويتموضع من جديد إزاء مؤخرته، إحليله، قطّته، اهتياجاته الجامحة، الغائطية، المثيرة، الذاتية التدمير والتي تسبّب السقوط التام. وإنَّ المعرفة فيه ليست سوى تجريد استمنائي للفكر لمصلحة الاستغلال الوحشي للحواس. لم يعد العقل هو الساهر، بل هي الغريزة تستفيق، محبّة للثأر ومفرطة، مستعدّة للصلب باسم الإثارة المطلقة، وتدجين الفضيحة وإلغاء الأخلاق، هذه المشعوذة القذرة التي كانت تجعل من المجامعة فعلاً مخجلاً ومن اللواط هرطقة. لقد شاخ العالم؛ وهو يشكو من عودة مدوّخة إلى الوراء؛ إلى العصر الحجري والوحشية. ثورة وحيدة، مَرَضية الشهوة والاستبداد لفرضها على الآخرين على أساس أنها الحقيقة الوحيدة وغير القابلة لأيّ نقاش. كذلك نحت العدمية إلى تقهقر الشارات الاستدلالية بما أنّ الجنس صار المرشِد العصابيّ إلى الذات ماحياً الله، الشيطان والقيم التي لا تقاس انطلاقاً من القدرة على انتصاب القضيب، ومن العمق الذي يسجّله في اختراقاته وتوتاليتارية الفنتاسم.

قذفني باتجاه الرصيف، وقد خرجت النار من فتحتي أنفه، مسحوقاً بمهاتراته، يلقي ذراعاً على إحدى

اللافتات، يطوي نفسه اثنين لاهثاً كجاموس إثر سباق عنيف فيذهب فجأةً وهو يتقيّأ محدثاً حشرجة في غاية الفظاعة.

أشفقت عليه وقلت له:

ـ ليس نيتشيه من يرخي الظلّ عليك بل أنت من صرت ظلّ نفسك يا زرادشت.

صاح:

ـ ثمّ سحقاً. بمَ أتدخّل؟

مرّر معصمه على فمه السائل منه لعابه، نهض، وابتعد متقهقراً في اتجاه السين المزركش بأنوار متراقصة.

قلت له بصوت عالٍ:

ـ أتعلم يا زرادشت لماذا ينبعث الفينيق من رماده؟ لأنّ كلّ ريشة من ريشه ارتوت من محبرة.

رفع كتفيه وقد كاد يسقط أرضاً مصطدماً بسيارة وسط الطريق؛ أصمّ إزاء أبواق السيارات والسباب المنهال عليه، وذهب ليوافي مملكته البالية.

15

ـ آسف للمسار الذي اتخذته الأمور. همس لي الضابط موليسهول.

شاهدته واقفاً إلى جانبي، ولا أعرف من أين ظهر. معاً، نظرنا إلى زرادشت وهو يختفي في الظلام.

هدأت الأبواق؛ استعادت السيارات سيرها المتعرّج عبر الجادة.

روبصات تظهر هنا وهناك ثمّ تتلاشى. وفي السماء الملبّدة، يدورعراك على خلفية دوي الرعد العنيف، وتصدّعات حمراء تتكسّر بسرعة وسط العتمة موحية بمناخ من الجحيم. مدّ الضابط موليسهول يده لالتقاط أول قطرة مطر، وخلال دقيقة أحاطني ونظر اليّ وجهاً لوجه.

قبيح كحيرته، هزل وبدا أقصر بعشرة ستنيمترات.

عليك أن تعترف:

ـ أكره نفسي شديداً.

ـ لست الوحيد.

أخذ ذقنه بين إصبعين، تأمّل رأس حذائه، أغضبني انزعاجه. تنحنح وجازف:

ـ ياسمينا. ..

لجمته بحركة حاسمة من يدي. رفع رأسه، فضّل عدم مواجهتي في عينيّ فراح ينظر حولهما.

ـ ماذا تريد؟

ـ أودّ كثيراً لو أعرف.

ـ أنت تلاحقني منذ وقت فقط لأنك لا تدري ماذا بقي لك للقيام به؟

ـ صحّ تقريباً.

ـ ليس هذا صعباً، أغرب عن وجهي!

ـ عفواً؟

ـ لا داعي. ..

بدوري وقفت أمامه مواجهةً. وجهه المضطرب لم يصمد، إذ سرعان ما أدار ظهره. أمسكته وضيّقت الخناق عليه.

ـ تريد أن تكون مفيداً في شيء على غرار النحس أيها الضابط موليسهول؟ خذ تحسّراتك البشعة وارحل. إذهب إلى الجحيم، إبحث عني بعيداً، لكن ابتعد.

أستحلفك بـأجدادك، إذهب، أخرج مني، من ظلّي، من حياتي. هيا، غادرني سريعاً! أريد أن أرى بوضوح. لم أعد أطيقك على ظهري وفي رجليّ.

كان الضابط مرتبكاً كثيراً، لكنه تمكن من أن يخفي ارتباكه.

قال:

ـ أفترض أنّ عليّ أن أضع العلامة على حساب إحباطاتك.

ـ إنها مشكلتك.

رفع عنقه. نظرته تشتعل حزناً وغضباً. أدار فكّيه لوقت طويل في دمدمة خفية، ثم رفع إحدى كفيه حتى رقبته، وسار خطوات معدودة ورجع رافعاً إصبعه.

ـ تساءلت مراراً إنْ كان ثمة فرق بين طاغية وبينك أنت يا ياسمينا. بحثت عن فرق بلا جدوى، لا أرى أيّ فرق، بل ثمة فرق وحيد، كبير: الطاغية يتحمّل وزر فعله.

ـ إرحل.

ـ إن أردت رأيي، الخيبات تلائمك كالجوارب. تصيح على السطوح أنك عديم الحظ. في الحقيقة، أنت تجهل التصرّف بالحظوظ، وهي لا تفلح في تحقيق نجاحك. من ناحية أخرى، تشغف بما يتعذّر

وزنه؛ لا تستطيع تخطّي هذا الأمر لأنك تعبد أن تجلد نفسك. لا تقدّر ميدالية إلّا كي تنتحب عاجلاً على وجهها الثاني. تذكّرني بهؤلاء النشالين الذين لا يعرفون كيف يبتهجون من دون أن يشتكوا. قلْ لي، هل اللذيذ هو لحم طريدتهم أم فعل أكلها من الداخل؟

تقدّم نحوي؛ لامس أنفه أنفي، اشتبكت أنفاسنا. حاولت إبعاده؛ قاوم، وقرّب وجهه من وجهي.

ـ حين قبلت قدري وأنا صغير، اعتبرتني رخواً وقرّرت أن تعيد اختراع العالم. قلتُ لم لا. في النهاية، ماذا بقي لدي كي أخسره، أنا من خسر شفيعه القديس؟ لقد كان لقتالك على الأقل الفضل في مدحي، لذلك وافقت على الدخول لعبتك بلا تحفّظ. على مقاعد الدراسة، فيما كان رفاقي يصمتون في صفوفهم كنت أنت المهرّج، وأنا من كان يتلقّى الضرب. وفي الأكاديمية، وبينما كان الطلاب الضباط منصرفين إلى حفظ نظام الجندية غيباً، كنت ماهراً في التعبير، وأنا من كان يُعنّف. في الكتيبة، وحين ذهبتُ في مهمّة خاصة، كنتَ تلهو بالرفض، وأنا من كان يُعَنَّف. عندما أصدرتَ كتابك الأول، شعرتَ بأن جناحين نبتا لك حين أنهم كانوا يسوقونني إلى الوحل. بسببك، تحمّلتُ عبء التحولات الطارئة، العداوات،

الشكوك ـ حالما كنت أدير ظهري - والتهكمات. لم أتّهمك مرة. بسببك، وبرغم كفاءاتي الأكيدة واستقامتي، تراجعتُ ولم أتقدّم، وعوملتُ كمشبوه ومسّوني في كرامتي العسكرية. لم أنتزع منك، مرة، كتابك السيء لأرميه في وجهك. كنتُ متمرداً لكنني لم أبالغ في تمرّدي. كان الأمر كذلك، كان ينبغي عليّ أن أقنع. العام 1989، حين قررت، خلافاً لأيّ توقع، أن تختبىء خلف اسم مستعار، كنت أرى جنوناً في ذلك؛ لكنني لم أسعَ إلى منعك عن هذا القرار. كان لديك حلم، هو الوحيد، ولم أشأْ تعكير حلمك. تعرّضت للتعنيف؛ ووجدتَ أن المسألة تستحق التعب فلم ألحّ. العام 1994، لمّا كتبتَ "موريتوري"، كنتَ تدرك جيداً الأخطار التي تعرّضُنا لها، ولم تهتم ثانية واحدة لهذا، حتى أنك لم تجد أنَّ استشارتي ضرورية هنا. أخيراً عندما قرّرتَ إنهاء مهنتك ضابطاً، فإنك، مرة أخرى، لم تتردّد لحظة. قلتُ في النهاية لمَ لا. .. واليوم، لأن القدر شاء أن تكشف اسمك الحقيقي في الوقت غير الملائم إطلاقاً، فأنا أيضاً مَن يتلقّى الضربات. ثمة ظلم واستسهال. أين حصتك في تحمّل المسؤولية؟ كلّ ما قدّمتُ من تضحيات في سبيل هذياناتك "المقدّسة" ـ أي حياتي بكاملها ـ لم تفلح

في جعلك تقدرني. .. أيّ مسخ هو أنت، ياسمينا خضرا؟ عرفتك مجنوناً بحلمك الصبياني، إلّا أنني جهلتُ أنك كنتَ أيضاً أنانياً وناكراً الجميل، مكيافيلّياً إلى هذا الحدّ. أنت أسوأ من مسخ، أنت الرعب في قبحه المطلق. متى ستستطيع أن تضع اسمك على كتاب؟ أحين تمشي على جثة والدتك؟

انقضّت يدي على وجهه، وبسخطٍ جعلني أشعر بوقع انفجار في رأسي.

انتفض الضابط. لكنه بقي واقفاً، متفاجئاً بعدائيتي. تردّدت يده قبل أن تلامس شفتيه المجروحتين. وضع أصابعه المدمّمة تحت عينيه ثمّ أراني إياها.

ـ أراهن أنك ستنفجر لفرط رغبتك في غمس ريشتك في دمي كي تكتب صفحة أضافية في سجلّ مجدك، ياسمينا خضرا.

ـ أغرب عن وجهي.

ـ وتتكلّم بعد؟ الآن وقد فهمتُ بأنك لست سوى كاتب متوهِّم، وبأنك لا تملك من الحياء ما يفوق حياء شخص قذر، وبأنّ كلّ شيء عديم القيمة في نظرك ما خلا مخطوطاتك، الآن بتُّ مرتاحاً كي أرحل. ما يقهرني فقط هو أنني تقاسمتُ وجودي مع قذارة من غير أن أدرك ذلك قبل الليلة.

سارعتُ إلى ضربه من جديد، لكنّ الضابط صدّ قبضتي ولوى معصمي. ألم شديد تمدّد باتجاه كتفي وإلى ساقيّ مما أجبرني على الركوع.

استغلّ الضابط سقوطي لمضاعفة ضغطه، وقد بدا السخط في حدقتيه.

ـ لا تتسلَّ أيها الحقير في رفع قائمتك عليّ.

ثم أفلتني باحتقار، سوّى معطفه وابتعد.

صحتُ به:

ـ نعم، إرحلْ. لا أريد أن أراك بعد الآن.

ـ ولمن تقول هذا؟ عُدْ إلى فنتاسماتك ولا تغادرها. كنت تمالق المجد وها هو فتح لك ذراعيه. هناك أبذل قصارى جهدك وبيِّن له اتساع إحباطاتك. أردتَ أن تغزو العالم بآلة كاتبة ورزمة أوراق؟ لديك أكثر من هذا. لكن تذكّر هذا يا ياسمينا. مهما يكن كرم ناشريك وصخب معجبيك، وأينما حملتَ ربّة فنّك، فلن تكون سوى صبي طرده والده من المنزل في التاسعة من عمره، ولن يعوّضه عن ذلك حب جميع البشر له. فعاجلاً أم آجلاً، سيكون عليك أن تتوقف كي تتنفس. حينها ستتعلّم بنفسك أنك أنى ذهبت لن تكون أبداً الولد الذي تمنيتَ أن تكونه. فإنْ كانت ثمة لعنة، لا تقلْ إنها تلاحقك؛ بل هي فيك.

16

البروق الغاضبة نظراً لكثافة الغيوم الداكنة المسيطرة في الجو، تتوهم كسرَ قانون الصمت لدى الآلهة، وتنفجر في حركة مناورة وإلهاء. لقد كانت حماستها الكاشفة تغضِب الرعود، والدويّ الهائل ينشر غيظه فوق المدينة، مزعزعاً الأبنية حتى أساساتها. وبعد هول تلك الانذارات ساد هدوء مؤقت، هدنة قصيرة ثم، استأنفت البرقشات المعمية مشهد تمرّدها، صاعقة كشعارات صاخبة، نازعة أكثر فأكثر إلى تصعيد سخافتها.

عدتُ أدراجي.

الليل تخطى منتصفه، أما زرداشت فقد رحل؛ واختفت حقارته. مشيت على امتداد الشاطىء، فشاهدت جسوراً أخرى تمتدّ أمامي. لم يكن يغريني إحسانها؛ بل أريد العودة إلى الفندق، ولا أعثر على شارع بون.

ساقاي مرتخيتان، حلقي جاف، أعود، أدور دواراً، مستاءً. وبعد طول تيه، أجد من يدلني مصادفةً.

البرد شديد في غرفتي لأنني كنت نسيت إغلاق الشباك. بعد ذلك خلعت ثيابي ورميتُ بنفسي تحت الـ"دوش" حيث المياه حارقة، والبخار يغزو سريعاً غرفة الاستحمام. كنت أودّ لو أضيع فيه نهائياً.

من دون وعي أتداعى في السرير حيث الأغطية تقرصني، والمخدات لديها ما ترويه لي، لكنني كنت أرفض الاستماع اليها.

إنَّ اشقرار" الأبا- جور " يذكرني بأود لانسلان من الـ"نوفيل أوبسرفاتور". لم يروِ كلامي غليلها، لكنها خلال حوارنا، تفحّصت كلّ كلمة تفوهتُ بها لمعرفة ما يختبىء خلفها. أزعجني هذا. وكي أريحها، اعترفتُ لها بأنني كنتُ بدائياً، بأنني جهلتُ أين كان الصدق يتوقف ليبدأ التصحيح. أومأت لي موافقة، خصّتني بثلاث صفحات، فهل ارتجفت يدها؟ إنَّ مقالتها لا تشي بشيء من هذا القبيل، كانت حماسية من البداية حتى النهاية. أتندم اليوم عليها؟ فهل تشعر بأنها استُغلّت، خُدِعَت؟ ونجاة معتوغي؟ ما زلت أراها ترتجف تأثراً، سعيدة بالجلوس مع الكاتب الذي "منحها حب الكتابة". خمس صفحات في "سلامة".

ماذا تحفظ بعد من تلك السهرة حيث أخذتني إلى المسرح لمشاهدة "الشيطان والإله الطيب" لسارتر؟ من جهتها قاسمتنا الشرفة الصحافية الألمانية مونيكا برغمان. وأنا محاط بهاتين المخلوقتين الرائعتين، الواحدة سمراء بقدر ما الأخرى شقراء، فإنَّ جاك بريل لم يكن ليشعر مثلي بامتلاكه للعالم. وفرنسوا تايلانديه، من الـ "فيغارو"؛ يورغن ف. لارسن، من الـ"بوليتيكن"؛ كريستوفر ديكي من الـ"نيوزويك"؛ شاكر نوري من "القدس العربي"؛ غاد ليرنر من الـ"راي ديو"؛ دانيال كوهِن ـ بنديت الذي جازف بـ"هالته" كونه مصرّاً على الدفاع عن كتابي أمام ملايين المشاهدين؛ جميع هؤلاء المثقفين والسياسيين الذين كانوا دعموني من غير أن يعرفوني... والآخرون ـ أولئك الذين كانوا حيّوا الكاتب كما الذين قدّروه أقلّ ـ ماذا يفكرون في شأن الرجل، الذي هو أيضاً جندي، في مثل هذا الوقت من الجدالات المذهلة؟

رفعت الأغطية عنّي، وسحبت من حقيبتي أوراقاً بيضاء. من أجل هؤلاء، وفي هذا الوقت الصعب، رحت أكتب رسالة استقالة الضابط موليسهول:

أنا أتراجع؟... إطلاقاً. لمْ أخن التزاماتي، ولم

أبدّل حرفاً في تصريحاتي. حييتُ الجيش باستمرار في سياق مختلف الحوارات التي أعطيتها للصحافة الغربية، وللصحافة العربية والجزائرية. وفي وقت يهيمن فيه السؤال: "من يقتل من؟"، ومخاطراً بمهنتي كاتباً، أهديتُ "خريف الأوهام" الى الجندي والشرطي في بلدي؛ كان ذلك في نيسان 1998.

أعترف بأن الحرب النذلةـ المتطرّفة التي لا تزال تعيث فساداً في الجزائر لم تكشف جميع أسرارها بحيث إنَّ الكثير من الجرائم وعمليات القتل والخطف لم يعلَم بها بعد. إنها حرب جماعية، سياسيةـمالية للغاية، سوف تستمر رهاناتها الباطنية والمضمرة في عرقلة جميع الوسائل الكفيلة بفضح أنصار واحدة من أفظع الخدع التي شهدها حوض المتوسط على الاطلاق. أما الالتباس في المناورات المدمّرة عبر وسائل الاعلام والشهادات المكتوبة فليست في الواقع إلّا لإراحة المذنبين الحقيقيين الباقين فوق الشبهات حتى الآن. وبصفتي كاتباً وضابطاً ملتزماً في الساحة الجزائرية، قدّمتُ أقصى الممكن من الاضاءة على "الأزمة"، مكرّساً لها خمسة كتب رزينة ونزيهة اعتبرها المراقبون الأوروبيون والجزائريون أكثر فاعلية من أنشط التحليلات.

اليوم هناك شهادة جديدة تتّهم الجيش بمجازر جماعية برغم أن الـ"جي.اي.أ." (الجماعات الأصولية المتطرفة) تتبنّاها جهاراً.

ما العمل؟ هل أصمت؟ قد يفسَّر صمتي على أنه موافقة أو تنصّل. هل أتحرّك؟ قد يهدّد تدخلّي هنا، مصداقيتي ككاتبٍ حرٍّ. وبين الشرّين، أختار ما يؤثر سلباً على حظوظي كروائي، لكن عذري أنه لا يثقل عليَّ ضميري. أيضاً، أعلن عالياً أنني، طيلة أعوام ثمانية من الحرب، لم أشهد يوماً أو أشتبه، لا من قريب أو من بعيد، بارتكاب الجيش أي مجزرة مدنية. في المقابل، أعلن عن مجموع المجازر التي كنت شاهداً عليها وحققتُ فيها، والتي تحمل جميعها توقيعاً واحداً وحيداً: الجماعات الأصولية المسلّحة. كذلك سأذكّر بأن ضحاياها عجزة ونساء وأطفال ورضّع هوجموا وهم الفقراء الأشدّ بؤساً، وقُتِلوا بهمجية لا مثيل لها ـ أطفال طُعنوا وأحرقوا أحياء؛ فظائع يستحيل اقترافها الا على أيدي أصوليين أو مجانين؛ حتماً على أيدي وحوش غير جديرين بالانخراط مجدداً في المجتمع وعاجزين عن استئناف حياة طبيعية. إنَّ بلوغ هذه الدرجة من البربرية تعني أنهم حتماً "طلّقوا" الله

والبشر، أما الجنود الذين عرفتهم في المقاومة فإنهم ما فتئوا يحتفظون بإيمانهم.

لكن من الضروري الاشارة إلى أن الجيش الجزائري الذي يوضع في قالب من الخوف بتهديد خارجي تحديداً، قد أضاع بوصلته تماماً بسبب صعود التطرّف. ولكونه غير مستعدٍ لاحتمال قيام حرب مدنية ورفضاً لمقولة أن الوطن يمكنه أن يستشهد على أيدي أبنائه، احتاجت المؤسسة العسكرية أعواماً كثيرة كي تنهض من الصدمة وتواجه، في ظلّ الغموض القائم، تصاعد التطرف. لكن وسط هذا الالتباس العام، المضبوط بحنكة من الشركاء الداعمين، تحديداً بين 1992 و1994، تمّ التثبت من أخطاء خطيرة وانزلاقات، وكذلك من ارتكابات فردية (ثأر، عدم كفاءة، خطأ أو ذهان) لا دخل للمؤسسة العسكرية فيها بما أن المحاكم والمصحّات العقلية استقبلت عدداً كبيراً من المتهمين.

فماذا أقول عن تصرف بعض المثقفين الفرنسيين أمام مأساتنا، ما خلا حزني وخيبتي، أنا الذي لم يسعَ طيلة ستة وثلاثين عاماً، وخلافاً للتيار، سوى إلى ملاقاتهم والتثقف منهم؟ ما القول عن هؤلاء الحلفاء الطبيعيين الذين كنت أحلم بهم كل ليلة، والذين

أظهروا افتقاراً مخيفاً إلى الفطنة، وتهوّراً مرفوضاً؟ الأكيد أن المأساة الجزائرية تهزّ وتذهل بالالتباسات التي تغلّفها؛ لكنّ ألا يستلزم وضع ضبابي حدّاً أدنى من التنبّه؟ كنتُ ضابطاً، ولم يغادر نظري ثانية واحدة، رمال الجزائر، إذاً، ألا يحقّ لي بالشهادة وإبداء الرأي؟ ليس الجيش الجزائري عصابة برابرة وقتلة. إنّه مؤسسة شعبية تحاول إنقاذ بلدها وروحه بالوسائل الضئيلة المتوافرة لديها وإنما هي تعزّزها بتصميمها وشجاعتها، وليس بأي شيء آخر. فليس عادلاً وانسانياً أن يُقدَّم الجندي الجزائري على أنه قرصان بلا إيمان ولا ضمير، ولا يليق بأشخاص متنورين ويُفترض أنهم يدافعون عن الحقيقة والقيم الجوهرية باسم الانسانية جمعاء أن ينخرطوا في هذه الحملة المغرضة.

أعود من الغابات، من القرى المصابة، من المدن المجروحة؛ أعود من كابوس سيمسّني تماماً في جسدي وروحي؛ حيث جحيم السماء يهتزّ أمام جحيم البشر وحيث نقاط الاستدلال تمحى كشرارات في الظلمة، لبلوغ الرعب والعذاب حدّ المطلق. .. وماذا أسمع الآن؟ أنّ الجندي الناجي بأعجوبة هو قاتل أطفال!... ماذا تعرفون عن الحرب، أيها المتربعون جيداً في بروجكم العاجية، وماذا فعلتم لنا نحن الذين كنا ندفن

موتانا كلّ يوم ونعيش في الحذر كلّ ليلة، عارفين أنّ أحداً لن يأتي ويرحم عذابنا؟ لا شيء. .. لم تفعلوا شيئاً على الاطلاق. ثماني سنوات من الحرب تابعتم خلالها مذبحة لا تحتمل كمجرّد مشاهدين مذهولين، فلم تمدّوا أيديكم إلّا لقطف صراخنا أو لدفعنا أكثر إلى الإعصار الذي كنا نحاول الفرار منه. ماذا تعرفون عن هؤلاء الصبية الذين قتلوا خلال المعارك، عن هؤلاء الآلاف من الجنود الذين حُصدوا وهم في عمر الورود وغالبيتهم لم تقبلْ بعد شفةً حبيبة أو عرفت خفقات حب مراهق؟ بأي ذكريات تحتفظون من هذه الوجوه المطفأة، من هذه الأجساد التي بلا حراك على جذوع أشجار محروقة، من هذه الأشلاء البشرية التي تشير إلى حدوث انفجار من هنا أو هناك؟ لم تروا شيئاً من جحيمنا، ولن تدركوا بتاتاً عمق شقائنا وحجم شجاعتنا؟ نحن أولاد بلدنا، محاربون رغماً عنهم، يقاتلون على مضض. نحن لا نقتل آباءنا، ولا أمهاتنا، ولا أولادنا من لحمنا ودمنا؛ لكننا نقدّم، في كلّ لحظة، بعض حياتنا صوناً لشبر من أرضنا وكرامتنا. وتذكّروا دوماً أنه حين نكون في التأمل أمام قبور الراحلين الغوالي، تضجّون، تبصقون على دموعنا، تسخرون من حدادنا وتقتلون ثانية هؤلاء الرائعين الذين

يخصّوننا، الذين لم يكونوا سوى جنود. لا أزال مقتنعاً بأنه، على غرار المصير، لا شيء يتملّص من الحقيقة. الجريمة لا تدفع. سيخلص النور حتماً إلى الاضاءة على الجمال أو القبح في كلّ منا؛ ولن يفلح أي قناع، أيّ "ليفتينغ"، في إنقاذ الوجه الغشّاش.

في هذه الأثناء، تواصل الجزائر تلقّي شتيمة أبنائها. فليدعنا لشقائنا مَن لا يستطيعون شيئاً. ومع ذلك، وإنْ ضعفاء، سنعرف كيف ننهض من رمادنا ونصمد إزاء أسوأ الكوارث: جُبْن الخونة منا ورخاوة "أصدقائنا".

بادرني ابني محمد موبّخاً:

ـ لن أخرج معك بعد اليوم.

وسحب يده من يدي.

ـ لماذا؟

ـ منذ حين، أحدّثك وأنت لاتسمع. غائب الذهن، ولديّ انطباع بأنني أخاطب جداراً. تطلب مني القيام بجولة معك. أقبل. بل أفرح، ثم تمسك يدي وتجرّني خلفك ككيس. متى ستنتبه إلى أنني معك، أكلّمك وأنني أحبك جدّاً حين تصغي إليّ؟

طريق سان-جوزيف مقفرة، والشمس في كبرياء والهواء يشعر بقلق الحدائق. حدّق محمد في وجهي، فأدركت بأنه على وشك العودة إلى والدته. حاولت

إمساكه من يده لكنه طواها خلف ظهره. هو غاضب مني، وأنا في حالة ضياع منذ اتصال بيتي مياليه لابلاغي بأنّ رسالتي استقبلت في الـ"لوموند" بطريقة مختلفة، ويبدو أنّ الآراء المناهضة لنشرها ستكون الغالبة. ألف مرة اشتكت زوجتي من اضطرارها للربت مرتين على كتفي للانتباه اليها. ابنتي تجد أنني صرت أخلّ بوعودي، أنني أتقصّد نسيان شراء مبراة أو ممحاة ناقصة في محفظتها؛ كنت أدخن كثيراً، أصوم طيلة النهار، مشتت الذهن.

ركعت أمام ابني مرتبكاً.

ـ سامحني.

ـ ألديك مشاكل مع الناس يا أبي؟

ـ ليس هذا حقاً.

ـ إذاً لمَ أنت على هذه الحال؟

ـ لا أدري.

ـ إن كنت غير مرتاح في هذا البلد، إرجع إلى الجزائر. لم تعد أبي الذي أعرفه منذ أن أتيتَ إلى فرنسا. إن كنتَ ترى أنّ البقاء هنا يسيء اليك فينبغي أن تقول هذا يا أبي. أنا لا أكون بخير إن لم تكن أنت بخير.

ترك أصابعي تحضن معصميه.

ـ يجب ألا تفكر بأنني لست بخير يا بُنيّ. أنا كاتب، وأعمل على مشروع جديد. الكتب ترغم. أنا مجبر على التفكير في جميع التفاصيل، ولا يعني هذا أنني أهملكم.

ـ لكنني رأيتك تكتب كتبك السابقة ولم تكن كما أنت اليوم.

ـ الكتاب الأخير غير عادي.

ـ ومتى ستنهي كتابته؟

ـ قريباً.

ـ وسنتمكن عندئذ من الذهاب إلى البحر في مرسيليا؟

ـ سنذهب إلى مرسيليا اعتباراً من الغدّ.

صاح قافزاً نحو عنقي:

ـ رائع!

انتهت الحادثة.

لكن إلى متى؟

في مرسيليا، كنت أجلس على رصيف مقابل "فيو بور"، بينما أولادي يأخذون شرابهم بنهم. أما زوجتي فكانت تقيسني بصمت وبنظرات تشي بانتقاد هذا الظل غير القابل للتحسّن، والذي يمنح نظرتي سوداويتها.

وهكذا كانت الأيام تمضي، حاملة معها أسراب

صبري في الوقت الذي استمرت فيه "اللوموند" على تردّدها.

إشارة صغيرة جاءتني من بلجيكا وخلّصتني من مخالب الانتظار، وهي أنّ دولور أوسكاري من محطة آر. تي. بي. إف، دعتني إلى برنامجها "أن أقدم على الكتابة"، وهي تسمية مصيبة. الاستقبال كان حاراً، ودولور على شيء من العذوبة، لكن لا سبيل إلى إضفاء فرح على وجهي المكفهر، لذا لن أكون على مستوى مودّة مضيفيّ. أنا أعي عدم لياقتي، وأستغلّ هذا الشيء. سيطر عليّ إعياء شديد على البلاتو الذي أتقاسمه ومالكة ماضي حول باكورة روائية مميّزة، والممتاز أنور بن مالك الذي التقيه للمرة الأولى. النقاش جرى بشكل ودّي، لكن تواضع مالكة وشفافية أنور لن يخفّفا من حساسيتي المفرطة. كنت أشعر وأنا أتحدث عن كتابي بأنني أحرّك مؤخّرة بندقيتي الرشاشة. وفي ختام الحلقة، لم أفلح في جسّ نظرة دولور. حضرت السيارة المخصّصة لنقلي وأنور إلى محطة القطار، فانتبهت إلى أن الوقت لم يتح لي أن أرى من كثب هذا البلد المنبسط الذي غنّاه لي بريل ماضياً، حين كنت جندياً، وعندما أحلّ ليلاً في قلب غابة "عدوّة"، مسلّماً سيري التوبوغرافي لعناية بوصلتي.

بدأت العودة إلى باريس بعاصفة. ولحسن الحظ أن أنور لم يدع نفسه يتأثر بإحباطي؛ كان يكلمني، يشرح لي، يهدئني. إنه شاب حيويّ، كريم جداً؛ كاتب موهوب. صوته اللطيف وهدوؤه حملاني إلى مقهى في الـ"غار دو نور" لم نغادره إلّا بعد وقت متأخر.

عدت بمزاج سيء إلى "بروفانس" والى حزن زوجتي لأنّ البرلمان العالمي للكتّاب الذي كان التزم بنا على عاتقه أنا وعائلتي الصغيرة، تخلّى عنا!

في "ايكس" وهو برنامج تاريخ مقتضب اسمه ميرابو؛ شبه بولفار ينطلق من الـ"روتوند" قبل أن يميل نحو مدخل المدينة القديمة. هنا سأتلف نعليّ من شدّة الدوران. إنَّ اميل زولا كان يعبره هو أيضاً لبلوغ مقهى الـ"دو غارسون"، ويداه خلف ظهره، فرحاً بكونه على مسافة من شخصياته. والرسام سيزان كان، من ناحيته، يمرّ من هنا لاخراج اللمسة الحرون من ريشته. وفي أيامنا، حين تسخر الشمس، "ايكس" بكاملها تنحدر من تحفظها وتنتشر في الساحة من (دفء) المدرّجات. من جهتي كنت كأنني أكبر في عالم ضبابي، واعتقدت أنني على وشك الغوص.

ذات ليلة، زارني جدي في المنام، ملتفاً بثوب برّاق، مكحّل العينين وطويل اللحية، ووجهه البهي يلمع بملامح ملائكية.

انحنى عليّ؛ لامست يده جبيني، فأزالت عنه الآلام. هذا سحريّ.

لم أعرف جدي. لقد مات حين كنت تحت الثلاثة أعوام. وكلّ ما أحتفظ به عنه أنه شخصية متعددة الألوان، عابرة بقدر ما هي مدهشة. كان شاعراً كبيراً. يُروى أنّ قريحته النثرية كانت كثيفة جداً حتى أنها أطفأت شمعة ذات مرة.

قال لي:

ـ أتعرف يا ولدي ما كانت الذكرى الأخيرة التي حملتها معي وأنا أغمض عينيّ إلى الأبد؟ ليست ذكرى انتصاراتي ولا ذكرى هزائمي، لا ذكرى ولائمي ولا ذكرى جوعي. .. حين كنت أسلم روحي، رأسي على ركبة والدك، رأيتُ "رجلاً" صغيراً يلعب في الدار. كان عالياً، عاري الساقين والقدمين، ولا يرتدي سوى كنزة رثّة. .. وقبل لحظة من موتي، نظرتَ نحوي وابتسمتَ لي. لاقيت مولانا من جديد مقوداً بابتسامتك. كانت هي أجمل ما رأيته في حياتي كلّها. فإنْ كنتُ هنا مرتاحاً حيث أنا، فبفضلها ربما. أسرع إلى العثور عليها يا ولدي ولا تدعها تغادرك أبداً.

استفقتُ على الدموع تغمر خديّ.

بعد الظهر اتصلت بي بيتي مياليه: الـ" لوموند" تفسح لي المجال للشك؛ رسالتي نشرت.

صباح اليوم التالي كان هناك ردّ فعل أول: اتصلت بي سكرتيرة السيد جان دانيال، وسألتني إن كنت سأشارك في اليوم الذي تنوي الجمعية الثقافية "كو دو سوليّ" تخصيصه لـ"جان دانيال، الجزائر، المغرب والمتوسط" في السابع عشر من آذار في معهد باريس للعلوم السياسية. أجبتها: طبعاً، لأنني أكن لهذا الرجل احتراماً كبيراً، ولن أقاطعه لأنه لا يشاركني رأيي. الرسالة نفسها وصلتني أيضاً من مدير الـ"نوفيل أوبسيرفاتور". تنفّست الصعداء لأنّ النزاهة الفكرية تتقدّم على الجدل. أيها النور المقدّس! يمكننا أن نكون تماماً ضدّ أفكار شخص ولا نكون بالضرورة ضدّ شخصه. ولو كانت هذه هي القاعدة القائمة عليها الصراعات التي تجعلني عرضاً أتخاصم مع الآخرين، لكنت في ألف خير. ليست رسالتي إعلاناً عدوانياً، بل قلتُ فيها ما كان عليَّ أن أقول، ومن دون عنف، لذلك، فكلّ إنسان حرّ في فهمها كما يحلو له. لقد قرأت عدداً وفيراً من الكتب التي تتناول الحرب،

وخاصةً القصص، وأدت بي التجربة إلى الاعتراف بأن ما يكتب فيها هو حقيقيّ. فإنْ كان بعض الوقائع محرّفاً، أو في غير موقعه، مقنّعاً، معقّداً أو مدحوضاً، فإنَّ تلك الوقائع لا تفقد الكثير في المقابل. نحن، بشكل عام، لا نروي الا الحرب التي قمنا بها. فالجلّاد يروي التعذيب الذي مارسه على ضحاياه، قذارة الانتهاكات التي ارتكبها ـ أما إسنادها إلى رؤسائه أو تقاسمها وإياهم فإنه لا يقلّل من عاره-، الجندي الفارّ يجد شرعيته في تخلّيه عن الجندية بينما الشجاع ينحني أمام تضحية أولئك الذين حاربوا إلى جانبه. أما الحرب فتبقى الحرب، وحشية خطيرة، منسجمة مع ذاتها، ظالمة ولا تغتفر على غرار من تسبّبوا بها.

17

أتاح لي معرض باريس للكتاب أن أعود إلى العاصمة الفرنسية.

لدى جوليار، برنار بارّو استعاد لونه لأنّ المصافحة بينهما قد أزالت سوء التفاهم. من جهتها بيتي مياليه لم تكن في مكتبها، لذلك اهتمت بي ماري-لور التي لم تشكك بي مرةً. وعندما فتحت ذراعيها ترحيباً بي، قفزتُ كطفل إلى الداخل. لاحقاً، انضمت الينا سيلفي باردو، فذهبنا معاً إلى معهد العالم العربي لأنني كنت مدعوّاً إلى مقهى أدبي. إنه لقائي الأول مع قرّائي. لم أكن في حالة من الذعر، لكنني لست في منأى منه.

توقفت بنا سيارة التاكسي أمام المبنى المستقبلي للمعهد، فأدركت أن المال أذا أراد، يعرف كيف يُظهر وجهه الإنساني. إنه لأمر مبهج أن يُنفَق المال بسخاء لتحريك الثقافة والفنون، مما يدفع بالمرء لمسامحته على الإغراءات النارية التي تدور حول خزناته.

الدكتور بدر الدين أروداكي لائق للغاية.

ومن الأكيد أن كتبي قد لقيت في قلبه ركناً دافئاً. إنه ذو لطف لا يوصف.

امتلأت الصالة تماماً، إذ ليس ثمة مقعد شاغر. أما الذين وصلوا متأخرين فإنهم مضطرون للاستماع إليّ وقوفاً. وإثر تقديم مختصر، فتح الدكتور أروداكي باب النقاش. إنه منشّط ثقافي ودود ومتعاطف، أسئلته لطيفة، ذات طابع أدبي صرف. إنّ هذا المناخ يدعمني بلا حدود لأنّ المتكلّمين حضروا من أجل الكاتب. تباً للجدل! لا أعرف أحداً في الصالة، لكن بعض الأسماء أليفة بالنسبة لي، مثل جلالي بن شيخ، وهو صاحب قلم جميل. كانت الأسئلة ذات رفق، والنقد جرى بشكل إيجابي، إلّا أنّ أحد مواطنيّ اشتكى، من دون أيّ عدوانية أو نية مبيّتة، من عدم فهمه لماذا اختار المستعرب الذي هو أنا، الفرنسية لغة للكتابة. جوابي بسيط. بين اللغة الفرنسية وبيني قصة ارتياح؛ تلائم حالاتي الداخلية. ليس في خياري هذا أيّ تبرّؤ ولا أي مشروع تطبيعي. أنا جزائري، مسلم، ولدى فرنسا ما يكفيها من الأطفال اللامعين لئلّا تشتهي خراف الآخرين الشاردة. الأمر صحّي من أقصاه إلى أقصاه. علت ضحكات في القاعة؛ حتى أنني حظيت بتصفيق، فشعرت أنني بين أهلي.

بعد النقاش والوقت المخصص للتوقيع، سلّم الحضور عليّ وبعضهم قبّلني. لم يتحدث أحد عن مقالتي، على الرغم من أنّ كثيرين كانوا سيدافعون عن الجيش، لكن من دون التغاضي، في المقابل/ عن رفض تصرفات بعض الضباط المتورطين في الاتّجارية.

افترقنا ونحن على شيء ملحوظ من الرضى.

هذه الأمسية ستبقى من أجمل أيام إقامتي "السداسية".

بعد المناقشة عرض عليّ أروداكي الذهاب لتناول العشاء في مطعم مغربي قريب من المعهد، حيث رافقنا شخصان فرنسيان، هما: فيليب كاردينال من معهد العالم العربي، وبيار تينار المكلّف من وزير الفرنكوفونية والتنسيق السيد شارل جوسلان، بأن يبلغني رغبة الأخير استضافتي على مائدته لتناول غداء ودي. الدعوة تشرّفني، لكنني لا أشعر بالاستعداد للقاء أشخاص من هذا المقام. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، في اليوم التالي سيكون افتتاح معرض الكتاب. وهذا المعرض سيكون الأول الذي أشارك فيه كاتباً وزائراً في آن واحد، وأجهل ما اذا كنت سأخرج منه بلا أي ضرر. لكنني وعدته بالاتصال به حالما يتسنى لي القرار. طبق العشاء كان يحتوي الكوسكوس أساساً.

وكأن شيئاً لم يكن، تعكّر النقاش لأنّ الذين استضافوني أعادوا الجدل إلى المائدة، وفجأة لم أعد أرى الشوكة والسكينة أمامي، لذلك توجّب على الدكتور أروداكي تجنيد كلّ ديبلوماسيته لتلطيف عادات بعضهم وتهدئة مزاج بعضهم الآخر.

في صالون الكتاب كان العيد حيث "ستندات" الكتب تملأ المكان، لكن شعوري بالتطفّل كان يعزلني. بحثت عن وجه أعرفه فلم أشاهد سوى مشاهير على الشاشات، لذا سارعت باللجوء إلى "روبير لافون". لمحت بيتي مياليه التي كانت هناك والتي، بنضارتها، أعادت إليّ هدوئي. إنها جميلة جداً، وهذه علامة حسنة. برنار كان يحتسي كأساً، ويبتسم بثقة، أما بعض كتّاب جوليار فكانوا يثرثرون هنا وهناك؛ فساورتني رغبة جامحة في الانضمام إليهم، لكن ناشري أعمالي قد فاتهم، كما يبدو، تقديمنا الواحد للآخر. سارع أنطوان آدوار إلى مرافقتي، وهو الذي يهتم بي منذ وصولي إلى فرنسا. وماضياً، لما كنت بعد في صفوف الجيش، في الجزائر، لطالما عرف كيف يتصل بي في الوقت الملائم ليعطيني دفعاً جديداً. وخلال اتصالاته،

على قلّتها، كان يجدني على شفير الانهيار المحتوم، لكنني كنت أتمالك نفسي مجدداً إثر كل مكالمة معه لأنه، في الحقيقة، ملاك وحارس حقيقي. بعد ذلك، أقبل الجزائريون، جامعيون، صحافيون، كتبة، قراء، زائرون عاديون؛ جميعهم يبحثون عني دفعة واحدة وسط هذا الحشد. يا للسعادة! إنهم يلتقطون لي صوراً، ويسعون للوقوف إلى جانبي، طالبين توقيعي على الكتب. أما بعض قرائي الشغوفين بي، فقد اقتربوا للاعراب لي عن مدى افتخارهم بي، ومن بينهم سليم، الذي أعتبره شخصياً أحد أذكى المثقفين الجزائريين؛ الذي كان حذّرنا في السبعينيات، عبر شخصيته الأسطورية بوزيد، من مخاطر الشعارات ومن غرورنا. وعند منعطف أحد الستندات، صادفت أنور بن مالك محاطاً بمعجباته، فقدّم إليّ ريجين دو فورج التي أعرفها من خلال كتبها وإطرائها على كتبي. كان اللقاء قصيراً، لكن الفرصة ستسنح بأن نرى بعضنا مجدداً ونتحدث بهدوء خلال احتفال الكتاب في "مولان".

تابعت جولتي آملاً في مصادفة كاتب من البلد أو صديق، فأدركت أنني مرهق، لكن الجوّ جديد وجاذب ما يكفي لعدم التنازل عنه. في وقت متأخر مساءً،

حضر السينمائي جان-بيار ليدو ليقلني من المعرض، وكي نكمل الحديث في منزله حيث انتظرتنا زوجته وقريبته من أجل عشاء كوسكوس لذيذ .

صباح اليوم التالي، وبعد الانتهاء من التواقيع، أقلّني جان-بيار إلى المبنى 27 في شارع سان-غيّوم في الدائرة السابعة لحضور الندوة التي تنظمها جمعية كو دو سوليّ تكريماً للسيد جان دانيال. هناك، رأيت على بلاتو الأنفيتياتر إميل-بوتمي، وشخصيات مهمة من عالمَي السياسة والفكر أمثال الأخضر الابراهيمي وجان لاكوتور وجان-بيار ميلكام ومحمد حربي وحميد برّادة، فضلاً عن أقطاب آخرين مثل سفير اسرائيل الذي لا أعرفه. بعدها دعاني جورج مورين للانضمام إليهم على المنصة حيث المنتدون هم رفاق نضال كبار لجان دانيال، وتتّسم كلماتهم بالمصداقية. لقد شعرت ببعض التوتر وسط هؤلاء المحاربين القدامى في ميدان العلاقات الإنسانية، المتقاطعة قصصهم عند مفترقات المصير، والذين تتخطّى صداقاتهم تماماً الرفقة العادية العابرة لأنها تحمل في داخلها ذكريات كثيفة قوامها المعاناة والرجاء في آن واحد، مع أنني لا أحفظ من جان دانيال سوى ذكرى شخص سارع إلى مبادرتي بقوله لي، وأنا من كان يجهل أين يخطو في فرنسا، إنَّ

في امكاني اعتباره صديقاً، وإنّ باب بيته مفتوح لي ليلَ نهار. تقدّمت بمداخلة مقتضبة، غير مبرهَنة، لكنها كانت كافية لتؤكّد لجان دانيال امتناني له. بعد الانتهاء من مداخلتي تحدّث مشارك آخر، إنه رجل قليل القدّ، هادىء وأشيب، عيناه أسيرتا نظارتين سميكتين، لكن طريقته في الانحناء المتواضع على الميكروفون كانت مؤثرة. بالنسبة لي، ثمة ابتسامات محبّبة، مع أنني لم أحفظ اسمه إلّا حين انتهاء كلمته. إنه بوعالم سنسال، مؤلّف الكتاب الرائع قَسَم \البرا\برة. كلانا فرح بقوة بـ"اللقاء من جديد" حتى أننا غادرنا البلاتو لنسارع في الذهاب إلى الداخل كمتواطئين عتيقين كانا أضاعا بعضهما أعواماً، لكن الناس من حولنا لم يصدّقوا أننا لم نكن نعرف بعضنا قبل دقيقة واحدة. كذلك كان هناك جزائريون آخرون انتزعونا من مضيفينا وزاحمونا بشدّة في طرف مقهى حيث قام حميد برّادة من مكانه ليتيح لنا الجلوس إلى جانب البروفسور عمر عبيدة والصحافي مولود مينوم من جريدة "الوطن". يومها، أدركت أن ضجيجنا يعيد "باب الود" إلى قلب باريس، فوجدت نفسي متعباً بعد هذه الحفاوة وتلك العفوية على الطريقة الجزائرية، التي تنعش إنساناً حتى ولو تاه في سيبيريا.

مساءً، حضر أندريه بونّيه وأعضاء في لجنته من الذين أعجبهم نصّي لاصطحابي إلى مطعم لبناني. هنا أيضاً، أكلنا حتى التخمة الكوسكوس وأطباقاً شرقية، وكان لقاء على العشاء لا ينسى.

زرت أختي في "يير" في اليوم التالي حيث أطلعني أحفادها على الصحف التي كتبت عني والتي كانوا يجمعونها بسرور. مساءً جمعَني في فندقي السينمائي والصحافي علي غانم، مع بوعالم صنصال والشاب العبقري سليم باشي حول حوار مطوّل لجريدة "وهران". بعد مغادرة الصحافي قدّم لنا بوعالم العشاء، على طريقة رب العائلة، فتكلمنا في الأدب معربين عن رضانا للاستقبال الذي يلقاه في البلد الكتاب الجزائري المنشور في باريس، سواء في الصحافة أو لدى القرّاء.

عشية عودتي إلى إيكس، التقيتُ في بار الفندق ثلاثة أشخاص. لا أعرف أياً منهم ما عدا السينمائي أحمد راشدي الذي تزيّن صوره غالباً المجلات السينمائية والصحف. لكن الاثنين الآخرين مشهوران في البلد، وهما الضابط عز الدين والطيب بلغيش وهو شريك مؤسس لجريدة الوطن. ولأنهم حضروا من دون

موعد مسبق راحوا يسألونني ما اذا كان لدي ارتباط، لكن تمت تسوية الأمر خلال دقائق؛ وخلال نصف ساعة كانت صداقتهم قد أسرتني. اقترح أحمد راشدي علينا مفاجأة محمد الأخضر-حامينا، الفائز بالسعفة الذهبية في مهرجان كان، في منزله، فوجدناه يقرأ، تحديداً، كتابي الأخير. ومن هناك، مضينا إلى مطعم جزائري مزدحم، فارتأى المدير إجلاسنا في زاوية بانتظار أن ينهي العشاء محمد بن شيكو مدير جريدة لوماتان، مع مدير طيران الجزائر في باريس، ووزير تونسي سابق بالإضافة إلى وزير جزائري سابق للثقافة. لكنّ الضجيج من حولنا أجبرنا على الصراخ لسماع بعضنا بعضاً. الكوسكوس المشوي "ملكيّ". رأسي يدور، قال محمد بن شيكو الذي خص رواياتي دوماً بكبير الاهتمام، والذي لم تكفّ صحيفته عن امتداح كتابي الأخير منذ صدوره، لذلك، توجه إليّ لتشجيعي على مواصلة الدرب الجديدة التي أشقها لنفسي كاتباً متخففاً من حذائه، فوافقه الضابط عز الدين بقوة. ومع أنني لم أسمع الا نادراً من يطري على كتابتي كهذين الرجلين فقد أخافني الأمر تقريباً. وحين قلّ الزبائن جلسنا نحن الجزائريين جميعنا حول طاولة واحدة

وأدرنا ظهورنا لجميع الآخرين لنكون أكيدين من أننا نرى أنفسنا فقط.

على طريق العودة سخط سائق التاكسي بسبب الصوت الذي أحدثه مرور السيارة في الطريق الغارقة بماء المطر، فراح يقود بطريقة متعرّجة وسط الزحمة، وأنا لا أبالي بتذمّره. أخذت أفكر في أريزكي ميتريف الذي تغيّب عن المعرض، وهو الصحافي الموهوب والكاتب الرصين الذي تعرّفت اليه العام 1989 في تامنراسيت بحيث أن أسبوعاً واحداً كان كافياً لنشوء تقدير متبادل فيما بيننا. لم أره منذ ذلك الحين، وبعد أحد عشر عاماً، جاءني صوته عبر هاتفي المحمول في كانون الثاني 1989 كي يدعوني إلى الرابطة الثقافية البربرية في نيسان.

ومن خلف البخار على الزجاج، رحت أراقب المارة المستعجلين للعبور هنا وهناك، وهم يلوون أعناقهم تحت مظلاتهم في الوقت الذي كانت فيه باريس ملتفّة بضبابية محزنة. ومع أن الوقت كان ظهراً لكننا كنّا نظن أن الليل على وشك الحلول. حاولت التخلص من تأثير المناخ الرمادي سلباً على مزاجي، فكان يومي في باريس منيراً، ولن تقوى على إفساده

نزوات شمس غريبة. أوصلتني التاكسي إلى المبنى 20 في شارع "موسيو" حيث ينتظرني كل من بيار تينار وفيليب كاردينال في بهو فندق مونتيسكيو. من جهته، حضر السيد شارل جوسلان من لندن، فدعانا للجلوس معاً إلى الطاولة مع بوعالم صنصال، سليم باشي، ميساء بيك الآتية من سيدي بلعباس، الأخضر بلعيد، وهو صحافي وكاتب باكورة بولار روائية ملفتة، كاترين سيمون من الـ"لوموند"، باتريسيا ألليمونيير من تلفزيون "تي. اف. 1" وكاتبة جزائرية لا تسمح لي تربيتي بتسميتها هنا والتي سأسميها للمقتضى، السيدة "ايلاس" (لفظة فرنسية معناها بالعربية واحسرتاه).

كان السيد الوزير يتحدث عن الفرنكوفونية، عن التعاون، وكذلك عن العلاقات الفرنسية- الجزائرية التي تتسمّم وفقاً للتقلّبات العشوائية للوضع الأمني، فتواصلت النقاشات التي كانت تثير الأسف والحزن، وتشي بانحرافات نظام يطول المدرسة والجامعة وآمال الشبيبة الجزائرية.

المحصلة جاءت كارثية: لكننا هنا، زينة الأمة، لاثبات أن السفينة إذا غرقت بسبب لامبالاة القبطان فاننا سنعرف كيف نرافق الغرقى لانقاذهم مخترعين لهم جزراً للعناية بهم. أبدت السيدة "ايلاس" رفضها

لاقوالي التي تشتمّ منها رائحة قتال قوية. كأنها تحمّلني المسؤولية الكبرى عن الفوضى والهزائم الجزائرية، ولأنني بالنسبة اليها مجرّد عسكريّ ذي يدين ملطّختين بالدم، والأجدى له الذهاب لتفحّص تلقيمة سلاحه بدلاً من البقاء هنا لتقويم ربطة عنقه الفلاحية بعصبية. لم ألتقِ هذه السيدة قطّ. سمعتُ فقط أنه ساءها كثيراً مجيء شخص اسمه ياسمينا خضرا بغتةً إلى المشهد الأدبي الفرنكو-جزائري، حتى أنها قطعت العلاقة بناشرها حتى لا تتلقى الاجحاف من مساكنة تلقائية مع شخص طارىء.

سألتني:

ـ لماذا لا تتكلم إطلاقاً عن التعذيب، في كتبك؟

لفتها الوزير:

ـ لكنه يتكلم عنه يا سيدة.

أصرّت متململة وقالت بنفور:

ـ لا وجود في كتبه لتلك الجزائر المعذّبة. لا يقدّم عنها سوى صورة قديمة لـ"ايبينال". نصوصه أبعد ما يكون عن الواقع. قلْ لي يا سيد خضرا، ألا تعتقد أنك تبالغ لشدّة استيهاماتك عن جزائر تهرب منك؟

ـ أذكّرك بأنني أعود للتوّ من الحرب التي لا تزال مستعرة هناك.

ـ آه حسناً!

هنا أيضاً، كانت مقتنعة بأن ثمة هذياناً اضافياً.

ـ لِمَ إذاً الاسم المستعار؟

ـ هذا الأمر شرحته.

ـ هيا هيا، لكنك لن تحاول إقناعنا بأن الجيش لم يكن مطّلعاً على حيلتك الصغيرة هذه.

أطلقت كاترين سيمون ضحكة لاذعة دلالة على صحة قول السيدة ايلاس التي تتمتع على الأقل بفضيلة الجَهر بما يفكر فيه الجميع سراً، فأصابت ضحكة الصحافية الفرنسية الهدف. إنَّ هذا النوع من الكراهية المجانية يصيبني في الصميم، خاصة تلك التي لا أجد لها تفسيراً، لذلك تنبّه السيد جوسلان إلى الخبث الذي يهدّد اللقاء وحاول تهدئة النفوس. لكن السيدة "ايلاس" لم تتراجع كونها مقتنعة بأنها محقة وترفض التوقف عند هذا الحدّ. ومن جهتي، فقد كنت متأكّداً من أنها لم تقبل دعوة الوزير الا لتصفية حساباتها مع كاتب تكرهه، فاعترضت بالأسلوب الغاضب عينه:

ـ لماذا اسم مستعار أنثوي؟ إنني أجد الأمر مسيئاً بما لا يوصف.

ـ كلّ شخص حر في اختيار الاسم الذي يريد.

هذا ما تدخّل به بيار كاردينال الذي بدأ يرى إلى أين تودّ الكاتبة الوصول.

ـ أنثوي؟ لرجل؟ لقد استغلّ النساء، وقامت مجلات نسائية كثيرة بتخصيصه بصفحات ثناء؛ لقد خدعها، لكن حسناً سأروي لكم. في مونريال كانت بيات وهي جامعية نمساوية تلقي محاضرة عن ياسمينا خضرا. لقد كانت المسكينة تتحدث بشغف، بحماسة كبيرة، ولدى انتهاء المحاضرة ذهبتُ لملاقاتها. ماذا كانت تعرف عن خضرا؟ ردّت بأن خضرا جزائرية تقوم منذ أعوام بدراستها، وأنها خصّتها ببحث لديبلوم دراسات معمقة في السوربون العام 1994، وأنها على اتصال دائم بها. ضحكتُ وناديتُ عبد القادر د. وهو كاتب وهراني يعرف شخصياً كاتبنا السرّي، فكشف لها هذا الأخير، كلّ شيء. المسكينة، حسبتُ أنها ستعنّفنا. أسفتُ كثيراً لها لأنّ الأمر كان مؤذياً.

وهنا فهمتُ بأنّ السوء ليس في الأجانب الذين يكرهوننا بل فينا نحن، لأن بعض الصحافيين الفرنسيين الذين لم يكونوا لطفاء معي لم تصلهم عني سوى الصورة التي رسمها لهم "إخوتي الخونة"، ولأنهم عرفوني من خلال نظرة بعض مواطنيّ وتقديرهم لي. حدّقتُ طويلاً في عيني السيدة "ايلاس" محاولاً البحث لها عن عذر، عن سبب تخفيفي، لكن عبثاً.

لقد كانت الخبيثة تجلس إلى يسار الوزير، معتدّة

بخبثها، تقرقر، وهي على ثقة من أنها أطلقت عليّ رصاصة الرحمة في الوقت الذي كانت فيه عيناها تلمع ببهجة ماكرة، ومَرَضية. شعرت بغثيان، أزحتُ صحني ورفضتُ الأطباق اللاحقة، خشية أن تجعلني أي لقمة أتقيأ، وانتظرت بفارغ الصبر الانتقال إلى محطة ليون حيث سيقلّني القطار السريع بعد ساعة إلى أولادي. ساد صمت ثقيل وسيطر على الطاولة، فنظرت إليّ ميسا بيك بأسف صادق. أما بوعالم صنصال وسليم باشي فكانا يحدّقان في أطباقهما وغير قادرين على ابتلاع الطعام. خجلت كثيراً، إذ كيف يمكن تشويه اجتماع محترم كهذا، إرباك وزير، وتحويل عشاء صداقة إلى هذه الفظاظة؟ بعدها، أخرجت السيدة "ايلاس" سيكاراً ضخماً من علبة وأشعلته بهدوء مستغرَب. لقد حزنت عليها وعلى نفسي وسط هذا الهذيان المتواصل بوجود صاحب مكتبة أو وزير. في الجزائر قال رئيس حكومة إنّ ياسمينا خضرا اختراع محض من الميديا الفرنسية؛ مسؤولون آخرون أعلنوا أنّ المعلومات التي في حوزتهم موثوقة: كتّاب "موريتوري" لا علاقة لهم بكاتب "حملان السيد، ولا حتى بكاتب "بمَ تحلم الذئاب".

ومن باريس إلى مونريال، راح عبد القادر والسيدة

"ايلاس" وقد أعمتهما غيرة خيالية، يشوشان العقول ملمحين لمن يريد تصديقهما إلى أن ياسمينا خضرا ليس في الواقع سوى ضابط الأمن العسكري الجزائري يساعده ضباط الوحدات بما أنّ الضابط موليسهول بالكاد يقرأ ويحرّر تقريراً. .. لاحقاً في كولونيا، لفتتني مترجمتي الألمانية ريجينا كايل إلى استمرار انتشار شائعة مفادها أنني لست واضع كتبي... فافترضت أنّ عليّ اعتبار هذا بمثابة اطراء.

همست لي باتريسيا أليمونيير بكلمات لطيفة، وكئيبة. أما كاترين سيمون فقد تجمدت في ضغينة صامتة، وهي التي سرّت قبل أشهر حين وافقتُ أن أعطيها حواراً برغم قراري بعدم الكلام ريثما أحضّر مغادرتي النهائية للجيش سرّاً.

أما اليوم فتسحب ثقتها بكاملها.

لا مراعاة هنا للمشتبه به، وحده المتهم بريء حتى تثبت ادانته.

قلت لها:

ـ يجب أن تحاولي التودّد نحوي، مع أنني لا أحتاج عاطفتها، إنما فقط لايقاظها؛ إنها طريقة لأقول لها ولسواها: تعلّموا الحكم على الأمور بأنفسكم. دعوا الوقت يحكم إنْ كنتم متردّدين، وعليكم ألّا

تسألوا الحمير عما يفكرون إزاء الأحصنة الأصيلة لأنها ستتذكّر عندئذٍ سوء حظها، ولن يكون لحقدها من مجال سوى أن يكبر.

قبل أن نفترق، اقتربت مني السيدة "ايلاس" فرحة وهمست لي من دون أي خجل:

ـ بلا ضغينة.

ـ يا للبؤس!

ابتسمتُ لها. حتى لا أبصق عليها. قد يطهّرها لعابي، وأنا لا أريد إنقاذها.

ثمة أناس يسعون إلى جبنة معينة تنطوي أصالتها إما على درجة عفونتها، أو على كثافتها. فعبد القادر د. والسيدة "ايلاس" من هذه الفئة من الناس. ينضحون بتقيحاتهم، لكن تطهيرهم يعني تغيير طبيعتهم.

"فجاجتك تعرّضك لامكان صدم عدد كبير من قرائك"، بهذه العبارات أنذرني الراحل مالك حداد رابتاً على كتفي حين قرأ السطور الواردة أعلاه.

ـ أعرف. لكنّ الاستقامة لا تقتضي فقط الاعتراف بالأخطاء الذاتية.

ـ لو كنت مكانك لتلافيتُ هذا النوع من المواجهة. هذا عديم الجدوى ولا يخدمك.

ـ مكاني؟ ألستَ مرتاحاً في مكانك؟ لا يمكننا الردّ بالطريقة نفسها، أستاذ.

حين تريد أن تكتب، يكفيك قلم وورقة. هذا لا ينطبق عليّ. أنا، قبل المباشرة ببري قلمي ينبغي عليّ أولاً أن أبدل عينيّ ويديّ.

18

يدخل القطار السريع محطة سان-شارل الثالثة وخمساً وثلاثين دقيقة، بينما يصل قطار إيكس-أن-بروفانس خلال نصف ساعة.

بالمقابل، هناك آلية صغيرة تسير على الأرصفة مثقلة رزماً ومثيرة الخوف بين المارّة فيعترضها رجلان مسنّان؛ فيما صاحبها لا يأبه لذلك، ويمضي في التوغل بين الحشد مطلقاً زموراً مزعجاً.

اشتريت جريدتي "الوطن" و"الحرية" من كيوسك ـ وهما الصحيفتان الجزائريتان الوحيدتان في مكان مماثل ـ ودخلت إلى أحد المقاهي وهناك علمت أنّ أخبار البلد محزنة.

قرّرت أن أقف أمام كوة مخصصة للركاب حيث سائقو تاكسي ينتظرون الركاب، فشاهدت سائقاً سميناً

ينام على المقعد الخلفي داخل سيارته، كاتفاً يديه على بطنه، ماداً رجليه نحو الرصيف.

تذكّرني باريس بوهران، بسمائها المتوترة وحشودها الصاخبة، مع أن باريس تعيد تنبيهي إلى النظام.

ماذا بقي من أيام التلاقي العشرة هذه؟ ثمة غضب حلّ محل أفراح الأرض كلّها. لكن مهما يكن لن أدخل إلى المنزل بوجه متجهّم لأنّ زوجتي تحتاج إلى تغيير أفكارها، مع العلم أنّ تجعيدة واحدة في جبيني قد توتّرها، لذا سوف ألاقيها بابتسامة. بعد دخولي، أخذ أولادي يتقافزون على عنقي صارخين فرحاً، وعندما انتهى الترحيب بي مدّوا أيديهم نحو الكيس باحثين عن هداياهم. أما صغيرتي حسنية فإنها لا تجرؤ على الاقتراب مني، بل تقف وسط الصالون، أصابعها في فمها وعيناها في حيرة. لا تفهم لماذا غبتُ طويلاً، هي التي اعتادت أن تغفو بين ذراعي ولا تستفيق إلّا وهي تنادي والدها. ركعت على ركبة واحدة، فتحتُ ذراعيّ؛ فتراجعت حتى الحائط حَردة ويقظة، ناظرة إلى أمها بفزع. ساعة مضت قبل أن تسامحني على غيابي.

في هذا الوقت، كانت زوجتي تنتظرني كي أجلس على الكنبة قبل أن تسألني تقديم "تقريري".

لقد أراحتها روايتي لكن من غير أن تحمّسها

كثيراً، لأن شيئاً ما يضغط على الرضى داخلي، لذلك، تراها تعود إلى بعض التفاصيل التي تضايقني. وفي ختام مساءلة طويلة جداً، وافقت على تركي، لكننا لم نلتقِ في غرفتنا إلّا بعد وقت غير قصير من منتصف الليل. ومع ذلك، فاجأتني مراراً وهي تنهض لاسكات حسنية وعيناها نحو السقف.

ـ أتريد شاياً ؟

ـ لا شيء.

ـ أكيد أنك بخير؟

ـ تعرفين جيداً أنني لا أنام بسهولة ولو كنت في غاية الارهاق.

ـ تضايقتَ في باريس، أليس كذلك؟

ـ أقسم لك أن الأمور ممتازة.

لم تلحّ وعادت إلى النوم.

وأنا نمتُ أيضاً.

حين فتحتُ عينيّ لمحت ضوءاً في الصالون مع أنّ زوجتي كانت تغطّ في نوم عميق. استرقت السمع نظراً لاعتقادي أن خفخفة تأتي من آخر الردهة. فجأة، سمعت سعالاً نخامياً أجبرني على النهوض من السرير، ومعرفة ماذا يجري.

تفاجأت برجلين في الصالون، أحدهما بدين

يتأرجح في كرسي هزّاز؛ والآخر يجلس على كنبة وهو يفتش في كومة من الجرائد والمجلات.

قال الأخير:

ـ آمل أننا لم نوقظك.

ـ أليس هذا ما تريدانه؟

توقف المفوّض ليوب مرغماً عن القراءة، وواجهني بنظرة مبهمة قائلاً:

- كنا في الجوار، دا عاشور وأنا، وقلنا إنك ستحبّ أن نلوي أذنيك اللتين لا تصغيان إلّا للّازمة المبتذلة.

أضاف دا عاشور متأرجحاً ببطء وقد غطت جفنيه قبعةٌ من القشّ.

ـ تماماً.

إنَّ ابرهيم ليوب هو البطل الشقيّ لرواياتي البولار، ولقد كنت محظوظاً بتعاطفه معي في بعض الفصول في أوروبا كما في المغرب. أما مقتله في "خريف الأوهام" فقد عرّضني للوم هائل؛ وظنّ بعضهم أنني جعلته يُقتَل غيرةً منه فقط .

بعدها، دلّني على الطاولة المكتظّة بقصاصات صحافية.

ـ هذا مؤثر. كتّاب كثر يطيرون فرحاً لو كتب عنهم ربع المقالات عنك.

ـ أعي هذا.

ـ إنه حظ كبير نظراً إلى مئات الكتب التي تصدر سنوياً والتي يمرّ معظمها في الظلّ.

ـ ليست المشكلة هنا يا ابراهيم. أنا لستُ سوى مرآة. كلّ نقد يتفاعل مع كتبي كنتيجة لما هو عليه الواقع. بهذه الطريقة تعلّمتُ أنّ ثمة أناساً خيِّرين يفوق عددهم السيئين. هنا الفرصة الحقيقية.

ـ في أي حال، لا تبدو سعيداً بهذا.

ـ بلى، صدّقني.

ـ اين المشكلة إذاً؟

ـ أعجب أنني لا أدري.

تردّدت على الرغم من رجاء المفوّض ليوب كي أجلس إلى جانبه، فرفع دا عاشور قبعته قليلاً لتشجيعي، لكنني تمهّلت قبل أن أدع نفسي أسقط فوق الكنبة. أما ليوب فكان يتابع أيضاً وأيضاً تقليب كومة الصحف أمامه، متوقفاً عند العناوين وصوري، فأمسك ذقنه وأردف كأن شيئاً تجمّد في حلقه:

ـ امرأتك محقّة: برطمة واحدة إنْ حلّت على مرحلة من مراحل الابتسام كفيلة بتضييع سعادتك هباء. فمتى ستهتم بالذين يحبونك بدلاً من التفنّن في التفكير بالنمّامين عليك؟ العالم مكوّن من الكرم والدناءة معاً، لذلك، يستحيل أن نطلب الاجماع وإلّا كنا واهمين.

ـ جنون العظمة أساس الأدب يا ابراهيم. لا

يزعجني هذا. ما يضايقني أنك لا تفهمني.

ـ لا أطلب سوى أن أفهمك.

ـ أبدأ أولاً بعدم إساءة فهمي.

ـ ساعدني في هذا.. من ناحيتي، حاولتُ، لكن عبثاً. حتى دا عاشور عجز عن فهمك.

هزّ العجوز رأسه موافقاً، وأكد:

ـ هذا صحيح.

لامني الشرطي بنبرة مرهَقة:

ـ ألا يكفيك التضحية بنفسك في النار كي تتنوّر؟

ـ أترى؟ أقول لك إنك تفهم الشخص خطأً.

وضع ابرهيم ليوب المجلات جانباً واتجه نحوي، يعلو خدّه تشنّج مشوب بحيرة. تنهّد، ثم اقترب محاولاً إمساك يديّ لكنه سرعان ما تراجع، لأنه يعرف بأنني أرتعب إن أمسك بي أحد بهذه الطريقة منذ أن تركت يدُ أبي يديَّ قبل أكثر من ثلاثين عاماً، لذلك تحرّك فمه بعصبية ولم يجد ما يقول. بعد ذلك، بادر دا عاشور لنجدته بعد أن أوقف فجأة حركة كرسيه الهزّاز، فأخذ يفكر بنزع قبعته، وهو يقلّبها بتوتر ثم وضعها على ركبته بينما عيناه الملهمتان من سماء كابيلي كانتا تتسمّران عليّ، وصوته المكبوت طويلاً في داخله، انفجر كنبع ماء حار في صمت الغرفة:

ـ مأساتك يا ياسمينا أنك تخيّلتَ عالماً رائعاً قابلاً لمساعدتك على التغلّب على من كان يفني الطفل الذي

كنتَه؛ عالماً من نور لطرد السواد الذي كان يحنّطك؛ عالماً حيث كلمة الشاعر تهيمن على فظاظة العسكر وفجاجة كلامهم. كان الامر غير متوقّع حتى أنك خلصتَ إلى تصديقه بكل كيانك. فقط، هذا العالم غير موجود، وهو يهمّك لأنه ثمرة نيّاتك الطيبة. اليوم، عليك أن تستيقظ وترى نفسك لأنّ الفراديس التي يصمّمها البشر لا تعكس سوى عجزهم في النيابة عن الملائكة. الأدب لا يفلت من هذا الإفلاس، هو جائر وقاسٍ، على صورة أولئك الذين يصنعونه، وهذا ما ترفض قبوله، لأن هذا الواقع يهدّد توازنك ويشوّه الصراع الذي خضته ضدّ التفاهة والبلاهة، أنت من غامر لرفع إخوانه إلى مستوى القيم التي تمثّلها. يجب عدم المراهنة، لحظة، أنّ المستقيمين هم على حقّ. الحق، الحقيقي، حلم قديم للّه.

لا يؤمن البشر سوى بالأحلام التي تكسرهم.

دوّى صدى صوته طويلاً في أنحاء الصالون. دا عاشور يعيد القبعة إلى رأسه وينزلها حتى أذنيه، ويضرب خفيفاً على كرسيه الهزّاز، ويعود مجدداً إلى التأرجح بما يتواءم مع صريرها.

نظر ابراهيم ليوب إلى ساعته وقال لي:

ـ كنتَ قلتَ لكاتب ياسين إنك أتيتَ إلى هنا تبحث عن شخص. إذاً، ماذا تنتظر كي تذهب إلى

إيجاده؟ قطاره يذهب بعد ثلاث وعشرين دقيقة.

نكاد نقول إنّ "ايكس" بكاملها تتواعد للقاء في المدينة العتيقة. فالشوارع تعجّ بالمتروبصين؛ وتمتلىء بهم الأرصفة، وتدفع بهم إلى الطرقات؛ مسنّون يتراجعون في اتجاه مقاهي البيرة المكتظة، بينما الأزواج هائمون على وجوههم، والأهل يسائلون أولادهم المأخوذين بصخب الرفاق وزمرهم، وعائلات بأسرها تلازم الشرفات، وأخرى تفضّل التجمع على عتبات منازلها. وبين وقت وآخر، تتصاعد جلبة مدوية في الأزقة في حركة هرج ومرج. كنت أجهل أن ثمة عيداً في البلدة، ففي ساحة المبنى البلدي حشد يرقص رقصة ريفية حول فرقة موسيقية تابعة للبلدية ويغني بأعلى الصوت، وقد اشتبكت الأيدي كغابة من القصب تهزّها الريح. مهرّجون يقومون بتسلية المتفرّجين، بعضهم مشياً على الحبال، وبعضهم الآخر قفزاً بهلوانياً باصقين على شعلات نارية. حاولت ايجاد ثغرات للمرور عبرها، لكن التقدّم بسرعة أكبر كان مستحيلاً. لم يكن أحد يصغي إلى تأففي، أو يرى أنني مستعجل. قامت مجموعة رفاق فرحين، متنكرين كقراصنة، وجرّتني في أعقابها؛ قاومت وعاكستهم بجنون محدّقاً في ساعتي. عشر دقائق، سبع، خمس. ..، الوقت يمرّ، فقدت صبري ووصلت إلى المبنى المستدير

المقبّب؛ هنا أيضاً لا يزال الابتهاج شبيهاً بسفينة تغرق. لا أدري بأيّ أعجوبة اندفعتُ بقوة كأنني جرف ثلجيّ نحو المحطة. الناس في حالة غليان وهم يحتفلون في القاعة، وأنا أرجوهم أن يدعوني أمر. دقيقة، خمسون ثانية، أربعون. .. أتقدّم خطوة وأتراجع. صوت صفّارة المسؤول عن المحطة يدوّي وسط الغوغاء، مجمّداً عروقي. بذلت جهداً هائلاً ويائساً فنجحتُ، بصعوبة، في عبور الأرصفة لحظة كان القطار يقلع. ركضتُ خلفه، مروراً بعارضات السكة الحديدية، وضاعفتُ من سرعتي ملوّحاً بذراعيّ لعلّ السائق يراني، مصماً أذني عن نداءات مسؤول المحطة. وبعد جري مدوّخ ابتعد القطار متابعاً طريقه. كان قلبي مرهقاً، والنار تغلي في صدري، فتوقفتُ في منتصف السكة الحديد ورأيتُ آخر حافلات القطار تختفي بعد انعطافها. لا أدري كم من الوقت بقيتُ على رصّة السكة مذهولاً. ولما استعدتُ حواسي وبعض أنفاسي، انتبهتُ إلى أن ضجيج المدينة توقف، والأرصفة فرغت فجأة وغادر مراقب الحطة. عدت إلى القاعة، المحتفلون الذين كانوا يموجون هنا قبل قليل تبخّروا، ومن الجهة الأخرى للنوافذ الزجاجية كانت الشوارع خالية تماماً. صمت جنائزي يسود الليل..، عدا جندي يجلس مرهقاً على مقعد، واضعاً حقيبته البحرية عند قدميه، وممسكاً بوجهه بين يديه بينما بزّته وحذاؤه كانا يلمعان كأنه في استعراض. إنه

ليس جندياً فرنسياً لأنّ شاراته العسكرية تدل على أنها لضابط من الجزائر.

اقتربت منه؛ ولما لم يتحرّك، انتقلتُ إلى يمينه، فتماهى سكوتنا مع صمت المدينة. بقينا على هذه الحال طويلاً، هو خائر القوى، وأنا مرهق.

همس لي من غير أن يرفع رأسه:

ـ لم أفكر بأيّ كلمة مما قلتُهُ لك، ذلك المساء.

ـ عادةً، لا نفكر كثيراً حين تحل خوذة مكان الرأس.

أخيراً رفع عينيه نحوي، فوجدته قد نحل كثيراً.

ناشدني:

ـ أحقاً أنت لا تحقد عليّ؟

ـ وكيف أحقد عليك؟ لم تقلْ سوى الحقيقة. .. طيلة حياتك تلقيتَ ضربات كانت موجهة اليّ ولم تعترض. عندما حان دوري لأعيد إليك المرقاة فانني احتفظتُ بها لنفسي. لقد تصرّفتُ بطريقة مرعبة إزاءك.

ـ أنت قاسٍ جداً مع نفسك.

ـ أنت تقول هذا! أتت ساعتي فرفعتُ رأسي أعلى من ذراعيّ وغنّيتُ مديحي الذاتيّ. كنتُ أسطو على الميكروفونات الموضوعة أمامي كأنها هبات، وكنتُ غبياً لظنّي أنّ في إمكاني الاحتفال بمفردي. أول خطوة راقصة قمتُ بها كانت على جسدك. .. انتهى وقت اللعنة. الآن وقد غسلني بحر الحشود من أي شبهة،

إلى اللقاء وشكراً. إنه رفيق حجرتي السابق الذي أنكرته ونسيتُ يده التي كانت تشجعني في العتمة، ونفسه على وجهي المرتعد، أمام العالم بأسره.

ـ كنتَ محقّاً في التصرف بهذه الطريقة يا ياسمينا. دوري انتهى؛ عليّ أن أخلي لك المكان.

ـ عائلتي الحقيقية هي أنت أيها الضابط موليسهول. لم تدعني أسقط مرة. وحتى حين كنتُ أهمّ بـ"حمل الشيطان على ظهري" كنتَ تسارع إلى حمله عني. ماذا فعلتُ لأردّ لك الجميل؟ بالكاد وصلتُ إلى أرض النعيم حتى تجاهلتك ووقفت إلى جانب من أشاروا إليك بالإصبع كي أحمي نفسي من عشرة السوء. كنتُ الأسوأ على الإطلاق، وإنْ كان للآخرين دوافعهم فأنا لا عذر لي. كان يكفي شكّ على جبين المستقصين كي أدفع بعنقك إلى المشنقة.

ـ هذا غير صحيح. ..

ـ لستُ هنا كي أطلب الغفران. لقد جئتُ كي أقرّ بأن الشجاع بيننا نحن الاثنين، هو أنت. لم تتنازل قطّ عن قناعاتك، أيها الضابط، أو تفرّط بذرّة من نزاهتك. لقد بقيت منسجماً مع إخلاصك، أما أنا فلا. اعتقدتُ بأنني ألتقط حظي، لكنه ليس سوى خدعة. أغراني القدَر كي يختبرني، فأثبتُّ له أنني لا أستحقّ تسامحه. حياتي انحرفت عن اتجاهها بسبب طبعي المجنون.

علقتُ في الفخّ كمن يريد المستحيل، ومنيتُ بضربة، وكان هذا محكماً بالنسبة لي.

انحنيتُ على حقيبته كي أرميه من فوق كتفي، وللمرة الأولى منذ ذاك الخريف عام 1964 عندما كانت بوابة مدرسة الأحداث تنتزعني من باقي الكوكب، أمدّ له يدي.

أقول له:

ـ تعال، فلندخلْ إلى المنزل.

تردّد، بحث في عينيّ عن نقطة ارتكاز.

ألححتُ:

ـ تعال، الأولاد في انتظارنا.

بلع ريقه بتشنّج.

سألني من جديد:

ـ أأنتَ واثق من أن هذا ما تريده؟

ـ بقدر ما أنا واثق من أنك أنت وأنا لسنا سوى واحد.

صدر للمؤلف

في سلسلة فسيفساء

عن دار الفارابي وسيديا

الصدمة، 2007.

أشباح الجحيم، 2007.

سنونوات كابول، 2007.

مكر الكلمات، 2011.

القريبة كاف، 2011.



مكر الكلمات

الكاتب هو، قبل كل شيء، إنسان ينتمي إلى عائلة وإلى وطن، وصاحب نزعة. مغامرة ياسمينة خضرا الشخصية تساوي كل الروايات في مرحلة التسعينيات، حيث لمع اسمه في أجواء الفلك القائم. مَنْ الذي كان يتلطى، وراء اسم مستعار ويوقّع به مكائده العنيفة في إطار الحرب الاهلية الجزائرية ومجازرها البربرية؟ عندما كشف في العام 2001 عن هويته الصحيحة - محمد مولسهول الضابط الرفيع الرتبة في جيش بلاده- انتقل، بعنف، من مصاف الكاتب العقائدي إلى الكاتب المشتبه به- إذ إنَّ الرأي العام الفرنسي، المنقسم والمتقلب إزاء مسألة المسؤولية عن المجازر، تحول ضده.

إن «مكر الكلمات» هو سرد واضح لهذه القضية الغريبة والحرجة، وللمجابهة ما بين الوعي والمفهوم العام الذي لا يتأخر عن أن يؤكد صوابيته بفرض ذاته.

«هذا العسكري المنشق أصبح خلال أعوام أحد أشهر أو أهم كتّاب عصره».

ترجمة: حنان عاد


ISBN 978-9953-71-651-0